

عبد الرحمن حمدى

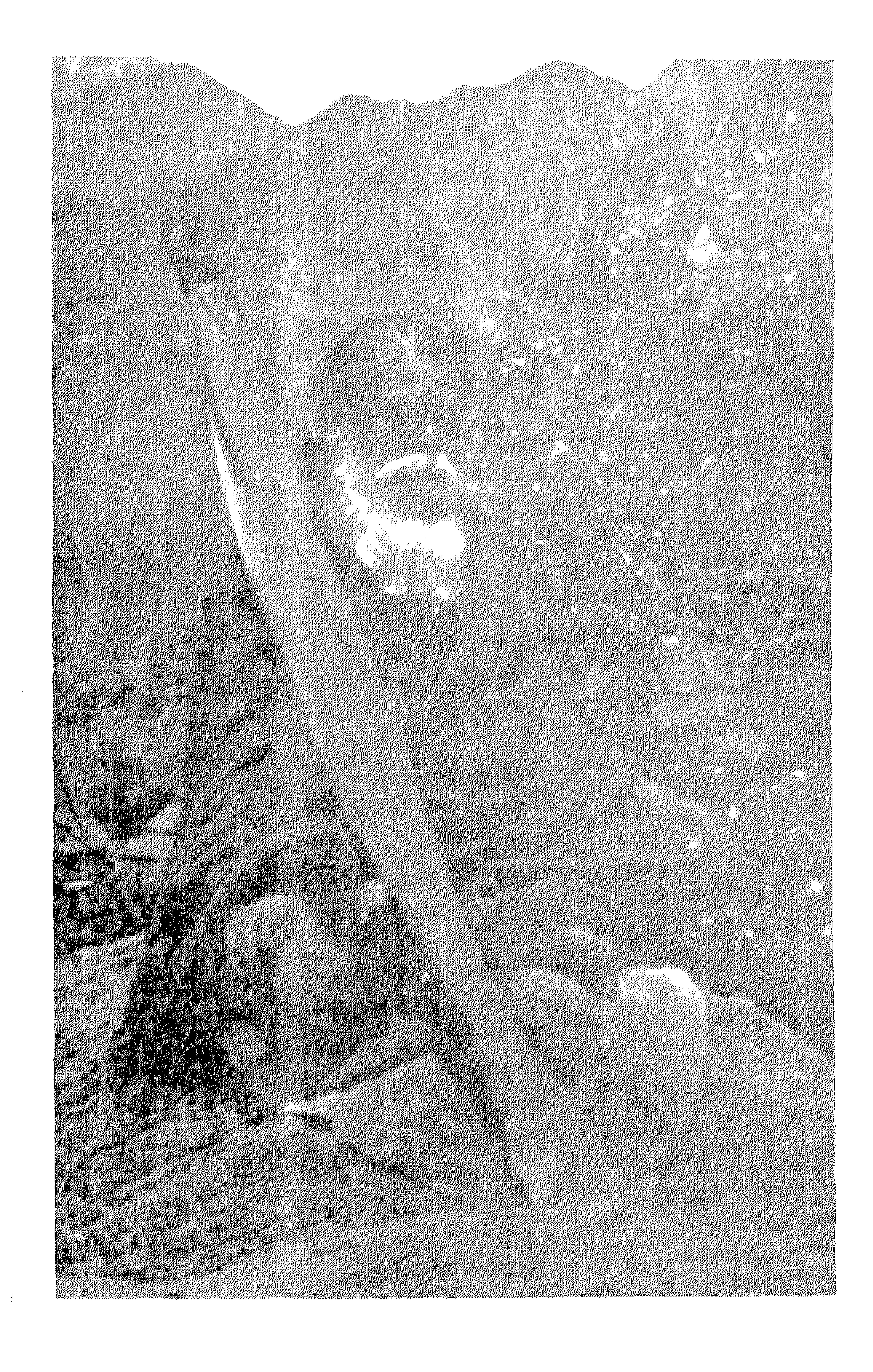
الهند .. عقائدها وأساطيرها

اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٤٣٢] فبراير - ١٩٧٨

رئيس التحرير أنيس منصور



عبد الرحمن حمدى

الهند ..
عقائدها وأساطيرها



دار المعارف

تصميم الغلاف : إسماعيل دياب

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

فهرس

١ – تمهيد	٨
التاريخ الهندى القديم	٨
الغزوات الآرية	١٠
ظهور الديانات المعارضة	١٢
إمبراطورية « الموريا »	١٥
إمبراطورية « الجويتا »	١٩
الغزو التركى المغولى	٢٠
٢ – الهندوكية	٢٢
نظام الطبقات	٢٢
قواعد التغذية	٢٦
التلوث والنجاسة	٢٧
القيود المفروضة على الطبقات	٣٠
٣ – الطبقات الهندوكية الأربع	٣٧
– البراهمة	٣٧
– الكشاتريا	٤٢
– الفايشيا	٤٤
– الشودرا	٤٦
كيفية انتشار الهندوكية	٥٠

انقسام الطبقات	٥٢
٤ – الديانة الهندوكية	٥٤
الفوارق فى الهندوكية	٥٧
الهندوكية البدائية	٥٨
الديانة الريفية	٥٩
زواج الآلهة	٦٠
الرقص والشعائر الدينية	٦١
الآلهة الرئيسية	٦٢
فلسفة الديانة الهندوكية	٦٥
الهندوكية السامية	٦٥
اليوجا	٦٦
التجسيد وتناسخ الأرواح (سمسارا)	٦٩
نظرية الخلاص	٧٠
الدارما والموكشا	٧١
٥ – الكتب الهندوكية المقدسة	٧٣
٦ – أثر الديانة الهندوكية على الحياة اليومية	٧٨
التنجيم	٨٠
شريعة «مانو»	٨٤
المعبد الهندوكى	٨٥
٧ – الإصلاح الدينى	٩٢
رام موهان روى – ١٧٧٢ – ١٨٣٣ م	٩٢

سوامي (ديانند ساراسواتى) – ١٨٢٤–١٨٨٣ م ٩٣
راماكريشنا باراماهنسا ٩٤
فيفا كاندا ١٨٦٣ – ١٩٠٢ م ٩٥
رابندرانات طاغور ١٨٦١ – ١٩٤٨ م ٩٥
غاندى ١٨٦٩ – ١٩٤٨ ٩٦
٨ – الأقليات الدينية فى الهند ٩٨
١ – الإسلام ١٠٠
الخلافات بين المسلمين والهندوك ١٠٢
مولد دولة الباكستان ١٠٦
٢ – المسيحية ١١٦
٣ – السيخية ١١٩
٤ – الپاريسية ١٢٤
٩ – الديانتان المنشقتان عن الهندوكية ١٢٧
١ – البوذية ١٢٨
البوذية الحديثة فى الهند ١٣٦
المعبد البوذى ١٣٧
٢ – الجانية ١٣٩
المعبد الجانى ١٤٧
١٠–ملحق خاص عن خاجوراهو ١٤٩

تمهيد

التاريخ الهندى القديم

الهند شبه قارة مترامية الأطراف ، بجغرافيتها ، وتاريخها ، وثقافاتها ، وشعوبها ، لا تعلم غالبية الناس عنها الكثير. أما عن دياناتها وشعائرها وطقوسها ، وفلسفاتها ، ونظام طبقاتها وطوائفها ، فلا تعلم القلة النادرة عنها إلاّ القليل.

ولذا كان لزاماً على الباحث دراسة التاريخ الهندى القديم ، وما مرت عليه الهند من حضارات ، وثقافات ، وغزوات ، وهجرات وشعوب ذات أجناس متباينة ، لتفهم هذه الديانات ، وإدراك ما تنطوى عليها من مبادئ وفلسفات ، وأساطير وخرافات ، يعجز العقل البشرى عن تقبلّها ، وما أدت إليه من تكوين المجتمع الهندى الحالى بعاداته وتقاليده ، وبالنظام المعقد لطبقاته وطوائفة الذى تنفرد به الهند دوناً عن سائر البلاد.

ولعل من سخرية القدر والتاريخ أن أول ما نعرفه عن ماضى الهند قد بدأ من

أراضي الباكستان الحالية . وبالرغم من أن الهند والباكستان تقفان الآن موقف المجابهة والخصومة ، إلاّ أنهما كانتا مرتبطتين فى وقت ما بماض مشترك حتى عام ١٩٤٧ ، وهو التاريخ الذى قسمت فيه شبه القارة الهندية إلى دولتين مستقلتين .

فقد ظهرت بوادر أولى الحضارات الهندية فى وادى « الإندوس » ، محور دولة الباكستان الحالية ، منذ حوالى ٢٥٠٠ عام قبل الميلاد ، بل ربما منذ ثلاثين قرناً قبل ظهور المسيح . ويعتقد أن هذه الحضارة وصلت الهند من حوض البحر الأبيض المتوسط قبل عام ٢٥٠٠ ق. م. وقد يحتمل أن أصلها يرجع إلى شعوب ذات بشرة سمراء ممن يستوطنون حاليًا جنوب الهند ، ويعرفون باسم « دارفيد » . وترجع هذه التسمية إلى لغتهم الدرافيدية ، وليس إلى مظهرهم الجسمانى .

ومن الجائز أن الدرافيديين كانوا هم الجنس السائد فى الهند قبل وصول الهجرات المتوالية النازحة من الشمال .

وكانت هذه الحضارة الهندية الأولى متقدمة ، مثلها مثل حضارات الإمبراطوريات الكبرى المعاصرة ، وأولها مصر وسومر . فقد كشفت الحفائر الحديثة فى السنوات الأخيرة عن مدينتين كبيرتين هما : « هارابا » و« موهنجودارو » ، ومحيط كل منهما حوالى خمسة كيلو مترات ، تخترقها الشوارع والساحات المربعة . وبها نظام دقيق لتوزيع المياه وتصريف المجارى ، وحمامات عمومية ، وتحصينات محكمة . ومنازلها ذات طابقين ، مشيدة بالطوب المحروق الذى لم يبله الزمن ، وتتوسطها أفنية متسعة كطراز منازل حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد كشفت شعوب حوض نهر الإندوس عن كثير من المهارات الفنية المتقدمة فى نسيج القطن ، وصهر وطرق النحاس والبرونز .

أما ديانات هذه الشعوب وعوائدها فلا نكاد نعرف عنها شيئاً . فكتاباتهم لم

تفكّ رموزها حتى الآن . ولكن من المحتمل أن تكون عناصر الديانة الهندوكية قد اقتبست من ديانتهم ، كما يستشف من بقايا تماثيل آلهتهم ، وعلى الأخص عبادة «شيفا» إله الرقص . وعبادة الإخصاب «اللّنجام» — أى عضو التناسل .

ومن الواضح أن مدينتى «هارابا» و «موهنجودارو» كانتا عاصمتين لدولة ذات نظام سياسى متقدم ، دام ما يقرب من تسعمائة عام ، وهى أطول حقبة متصلة فى تاريخ الإمبراطوريات الهندية المتتالية .

الغزوات الآرية

والاعتقاد السائد أن غزوات الآريين قد تسببت فى تدمير حضارة وادى الإندوس . والآريون ينتمون إلى الشعوب الأوروبية ، ظهروا فى الهند حوالى عام ١٥٠٠ ق.م. ، على أثر سلسلة من الهجرات المتتابعة . وهم قبائل رحّل من المحاربين لا يسكنون الحضر ، بل يرتحلون بقطعانهم من الأبقار والخراف ، ويقاتلون فوق عربات تجرها الجياد .

وكانت لغتهم هى «السنسكريتية» المرتبطة باللغات اليونانية واللاتينية والجرمانية والسلافية . ومنها صنّفت مؤلفات دينيةوفيرة ، كانت تنتقل عن طريق الفمّ لقرون . قبل أن تأخذ الصيغة المكتوبة .

وأهمل الآريون عبادة الإخصاب التى كانت تتميز بها حضارة الإندوس ، فقد كانت دياناتهم تدور حول عبادة القوى العظمى للطبيعة .

وتُظهر أقدم أناشيدهم الدينية «الفيدا» — التى صيغت فيما بين عام ١٥٠٠ ق.م. ، ١٠٠٠ بعد الميلاد — عمقاً فى العاطفة الدينية التى تستشعر النزعة التأملية للفكر الهندوكى .

ولم تكن مؤلفاتهم الأدبية تطرى ذوى البشرة السمراء(١) . ولعل هذا التعارض بين السلالتين ، البيضاء والسمراء ، كان أحد مصادر نشأة نظام الطبقات فى المجتمع الهندوكى الذى تنفرد به الهند .

ومن الشمال الغربى للهند تسرّب الآريون إلى الشرق ، حيث أسّسوا فى مناطقه مجتمعاً وحضارة جديدة ، نتج عنها انصهار العناصر الآرية فى العناصر المحلية الوطنية . وهى الحضارة التى عرفت باسم « الإندو– آرية » .

أما تسلّلهم إلى الجنوب فأتى بعد ذلك ، وبأعداد قليلة . وكان هدفهم من هذا التوغل ثقافيًّا أكثر منه فتحاً عسكريًّا . فقد أدخلوا قسطاً كبيراً من العناصر السامية للّغة السنسكريتية فى ثقافة السكان ، وخاصة فى الطبقات العليا . ومع ذلك فقد تشبثت العناصر الدراقيدية بعناصرها الأصلية . فحتى يومنا هذا مازال التباين الشديد قائماً بين الشمال الإندو– آرى ، وبين الجنوب الدرافيدى . حتى أن الكثير من الحركات السياسية المتطرفة فى الجنوب تعمل على إثارة عداوة الدرافيديين تجاه الجنس الإندو– آرى ، وتستنكر سيطرة واستغلال الشمال للجنوب . كما تهاجم طبقة البراهمة من الطبقات العليا بسبب أصلهم الإندو– آرى ، مع أن العائلات البرهمية وُجدت بالجنوب منذ ما ينوف على الألفى عام . ولكنهم ما زالوا فى نظرهم أغراباً دخلاء مستغلين ، وفدوا عليهم من الخارج .

وقوى امتزاج الحضارتين فى الشمال ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد وابتدأت آلهة القوى العظمى للطبيعة فى الاختفاء ، لتحل محلها الآلهة المحلية ، مثل « فيشنو » و« شيفا » ، وهما الإلهان الرئيسيان للديانة الهندوكية المستقبلة .

---

(١) وحتى الآن يفضّل الهنود البشرة الفاتحة . وتنشر الصحف إعلانات لراغبى الزواج يشترط فيها صاحبها فى شريكه الآخر بياض البشرة .

كما بدأ التصوّر الهندوكى لتناسخ الأرواح وتجسيدها فى الظهور. وعقيدة «كارما» ، أى القضاء والقدر ، و «دارما» ، أى أداء الواجب ، فى الارتباط بنظام الطبقات والطوائف.

وبهذه الطريقة بدأت الهندوكية فى التبلور والتطور كدين وهيكل لنظام التسلسل الطبقى ، يسيطر عليها الكهنة البراهمة بما أحاطوه بها من شعائر وطقوس غريبة معقدة ، تتطلب ممارستها تقديم الكثير من الضحايا الحيوانية الغالية .

ظهور الديانات المعارضة

وقد أثارت ممارسة الديانة الهندوكية بما صاحبتها من تعقيدات ، حركتين إصلاحيتين كبيرتين ، شهدت مولدهما مقاطعة «بيهار» بالجهة الشرقية لوادى نهر «الجانج » .

وأحد المصلحين هو «ماهافيرا» مؤسس طبقة «الجانية» ، والآخر هو معاصره الشاب «تشاكياموني» ، الذى عرف فيما بعد باسم «بوذا» ، أى الملهم – وبوذا لقب دينى يشابه لقب «المسيح» الذى خلع على يسوع .

ومن المحتمل أن يكون هذان المصلحان عاشا بين عامى ٥٥٦ و ٤٧٦ ق.م. وقد هاجم الاثنان تعدّد الآلهة فى الديانة الهندوكية ، وطالبا فى الوقت نفسه بعبادة رب واحد .

وكانت تعاليم البوذية تقتضى بذل الجهد العقلى والأخلاقى . هذا الجهد الذى يتحتم على المؤمن أن يثابر عليه طيلة حياته . كما كانت هذه التعاليم تعارض فى التأملات الهندوكية التى كانت تضيع هباء فى التخمينات والتصورات الخاصة بآلهتهم المتعددة ، وفى البحث عن الطرق المؤدية إلى الخلاص النهائى فى عالم آخر .

وقد بدا أن البوذية تغلبت على الهندوكية ، خاصة فى إقليم «بيهار» ، وفى «البنغال» فى الشمال الشرقى للهند . فى غضون ما يقرب من الألف عام ، التى بدأت من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الخامس أو السادس من عصرنا الحالى . أما فى خارج الهند فقد خلّفت أثراً عميقاً . وكسبت فى صفها الكثير من المريدين فى الصين ، وفى اليابان بعد ذلك . كما أصبحت الديانة الغالبة فى إقليم التبت [1] ، وفى جنوب شرقى آسيا .

وأصبحت الهند بالنسبة إلى شعوب هذه الأمم «أرضاً مقدسة» ، يؤمونها للحج ، ولدراسة النصوص المقدسة ، ولزيارة الأماكن التى تلقّى فيها بوذا الوحى بديانته وبشربها .

فبفضل البوذية زحف نفوذ الحضارة الهندوكية عبر آسيا خلال القرون العشرة الأولى من عصرنا الحالى .

أما «الجانية» فلم يكن لها نفس صدى البوذية خارج الهند ، بل اقتصر اعتناقها محليًا على عدد كبير من الحكام والملوك .

ولم تبق فى الهند فى أيامنا هذه إلاّ أقلية ضئيلة من الجانيين والبوذيين . ولكن الديانة الهندوكية ، ديانة الأغلبية ، اقتبست الكثير من عناصر عقيدتها التى أثرت بعمق فى الفكر والعادات والتقاليد الهندية .

ولا شك أن من بين المثل العليا للهندوكية ، مثل عقيدة «أهمسا» ، أى عدم

---

(١) كان كل واحد من اثنين من سكان التبت راهباً بوذياً ، وذلك قبل الغزو الصينى الأخير لها ولما كان لا عمل للراهب البوذى إلا التسوّل والتعبد ، فيعنى هذا أن نصف الشعب التبتى يعيش عالة على نصفه الآخر !

العنف ، والعقيدة النباتية التى تمارسها طبقات معينة ، إنما يعود أصلها إلى الديانتين الجانية والبوذية .

وكانت إزالة الحياة فى جميع صورها مكروهة محرّمة عند الجانيين . والمؤمنون منهم يذهبون فى ذلك إلى أبعد مما يتصوره العقل والمنطق – كما سيجئ الكلام عنه فيما بعد عن الجانية .

ويعتبر الزعيم غاندى من أخلص أتباع سياسة عدم العنف ، التى تنص عليها تعاليم الجانية . تلك التعاليم التى تأثرت بها أمه ، وانتقلت منها إليه .

ويتلخص ما احتفظ به الغرب من تعاليم البوذية فى أشياء قليلة منها : إن الحياة ما هى إلاّ رحلة قصيرة مؤلمة . . . وأن يضع الإنسان نصب عينيه الانعزال والانفصال التدريجى عن جميع رغباته وشهواته . وذلك بهدف الوصول إلى إفناء وتلاشى ذاتيته (أنا) فى «النيرڤانا» . أى الراحة الأبدية . وسعادة النفس فى عالم الخلود . والإصرار على التدريب اليومى للتغلب على هذه الرغبات الشخصية ، والتحلى بالأمانة والحب .

وكل هذه المبادئ هى مشغوليات تختلف جذريًّا عما فى الديانة الهندوكية البدائية ، التى كانت تتركز فى أداء الطقوس والشعائر .

وهناك بعض مقتبسات من التعاليم الأولى لبوذا ، ومنها يمكن الحكم على سمو الفكر البوذى ونقائه :

«فلينتصر الإنسان على الغضب بالحب . . . وعلى الشر بالخير . . وعلى الشّح بالكرم . . وعلى الكذب بالصدق . ومن السهل أن يدرك الإنسان خطأ غيره ، ولكن من الصعب أن يدرك خطأ نفسه .

ولكن البوذية تعدلت كثيراً بمرور الزمن ، وكان التركيز على شخصية بوذا

نفسه ، وعما إذا كان يعتبر إلهاً أو بشراً . وانقسمت الديانة عبر القارة الأسيوية إلى طوائف كثيرة ، لكل طائفة منها فلسفتها الخاصة بها .

أما فى الهند بالذات فقد تغيرت تعاليمها نتيجة لاقترانها بالخرافات والممارسات السحرية المتأصلة فى التقاليد الهندوكية .

ولكن مع ذلك فالديانة الهندوكية قد استوعبت فى الوقت نفسه الكثير من رسالة بوذا الأخلاقية ، وأفردت لها مكاناً مرموقاً وسط الهيكل الهندوكى لآلهتهم التى لا يحصرها عدّ .

وأخيراً ، كان التدمير الذى أصيبت به الأديرة والمخلفات الأثرية البوذية على يد المسلمين عند دخولهم مناطق بيهار والبنغال فى أواخر القرن الثانى عشر ، كافياً لإقصاء ما تبقى فى الهند من آثار البوذية كدين مميز .

ومع هذا فتأثير البوذية ما زال حيًّا داخل الهندوكية حتى وقتنا هذا .

امبراطورية « الموريا »

وقد تأسست فى الهند إمبراطوريات كبيرة وسلالات قوية على مدى عشرة قرون أو اثنى عشر قرناً ، وهى الفترة التى انتشرت فيها البوذية ، إلى حين زوالها .

ففى نهاية القرن السادس قبل الميلاد ، وفى العهد الذى كان ينشر فيه « تشاكياموتى » تعاليم ديانته الجديدة فى شمال الهند ، غزا الإمبراطور « داريوس » العظيم ملك الفرس ، منطقة الشمال الغربى ، وهى الأراضى التى تحتلها الآن دولة الباكستان . وكان من نتيجة ذلك الغزو أن اتصلت الهند باليونان ، التى كانت بدورها على صلات بالإمبراطورية الفارسية .

وعقب ذلك غزا « الإسكندر المقدونى » الهند ، ووصل إليها بجيوشه فى عام

٣٢٦ ق. م ، بعد أن هاجم بلاد الفرس . وبعد عدة انتصارات فى هذا الإقليم نزل إلى وادى الإندوس ، وواصل زحفه حتى «بابليون» التى توفى فيها عام ٣٢٢ ق . م .

وكان شمال الهند مقسماً حتى هذا العهد إلى ممالك صغيرة متعددة . وبعد الغزو الإغريقى ٣٢٢ ق . م ، تولى الإمبراطور «تشاندرا جويتا» مؤسس الإمبراطورية «الموريّة» (١) ، عرش «ماجادّا» المملكة الرئيسية فى المنطقة التى تحمل الآن اسم بيهار . ثم غزا الإمارات الصغيرة الشمالية ، ومدّ حكمه وسلطانه حتى وصل إلى «ميسور» فى الجنوب ، محققاً بذلك أوسع اتحاد سياسى فى التاريخ الهندى .

ويعدّ حفيده «أشوكا» واحداً من أشهر ملوك التاريخ قاطبة . بدأ حياته ظالماً عاتياً جباراً ، وأنهاها وهو – كما يعتبره الهنود – أقرب إلى القداسة .

ارتكب أشوكا كثيراً من الأخطاء فى حياته ، ولكنه اعترف بها فى النهاية تائباً مستغفراً . وكان أول حاكم اعتنق عقيدة عدم العنف ، وكره الحرب والقتال ، حتى أنه امتنع عن الصيد . وأطلق الحرية لقطعان أفياله التى كان يستعملها فى الحروب والصيد .

وكان نتيجة للدفعة القوية التى أعطاها أشوكا للبوذية ، واعتناقه لها ، أن انتشرت هذه الديانة فى أرجاء الهند ، حتى وصلت إلى جزيرة «سرنديب» ، وهى جزيرة «سريلانكا» حاليًا . كما أوفد المبشرين إلى مناطق أخرى نائية .

ومن فرط اهتمام أشوكا . بالأخلاقيات البوذية ، فقد حفر مبادئها على الصخور واللوحات الحجرية ، ونشرها فى جميع أنحاء إمبراطوريته الواسعة . وتبشر هذه التسجيلات بالتسامح الدينى ، وبعمل الخير لكل ما هو حىّ ، وبالتحلى بالصبر والأناة ، وبالحث على الامتناع عن الحسد .

---

(١) ويطلق عليه المؤرخون اليونانيون اسم «ساندرا كوتوس» .

ولم تعش إمبراطورية الموريا طويلا من بعده ، فقد اكتسحتها جحافل متعاقبة من المهاجرين ، مخترقة ممرات الجبال فى الشمال الغربى للهند ، حاملة معها أجناساً ونفوذاً أجنبيًّا جديداً .

وكان من بين هؤلاء المهاجرين ، الإغريق الذين تخلفوا فى شمال الهند عند غزو الإسكندر . ثم تلاهم شعب ال «ساكا» - الإسكيثيين - وهم من الشعوب الرّحل ، أتوا من شمال آسيا . ثم شعب آخر موطنه آسيا الوسطى ، ويعرف فى الهند باسم «كوشان» .

وقد أسس الكوشان مملكة شمالى الهند ، بلغت أوجها فى القرن الثانى من عصرنا الحالى . وامتدت حدودها من الشمال الغربى حتى حوض نهر الجانج و «بنارس» جنوباً . ونحو الشمال والشرق حتى وسط آسيا . وبذلك صارت ملتقى للحضارات الأربع الكبرى لذلك العصر ، وهى الحضارات الهندية ، والصينية ، والفارسية ، والإغريقية - الرومانية .

وقد ساهم اعتناق الكوشان للبوذية فى تغلغل تعاليمها إلى الصين وكوريا واليابان ، وفى عهدهم تطوّر الفكر عن بوذا من بوذا النبى ، إلى بوذا الإله .

كما كان التباين واضحاً بين الفن البوذى لعصر ما بعد الكوشان ، وبين فن «جندارا» ، الذى انتشر فى الجهات المتاخمة لعاصمتها «بيشاور» - شمال غربى الباكستان . فلم يعثر على تمثال واحد لبوذا من العصر الكوشانى . بل كانت الرموز وحدها هى التى تعبّر عن القصص البوذى . فكان يرمز مثلا إلى نبذ بوذا للقب الإمارة - وكان ابن أمير - ومغادرته قصر أبيه ، بحصان بدون فارس ويرمز إلى أولى عظاته التى بشّر بها تحت شجرة التين الهندى ، برهط من الرجال يفترشون الأرض ، وهم يتطلعون بخشوع إلى شخص وهمى غير مرئى ، جالس تحت شجرة .

أما فن جندارا فقد تخصص فى نحت تماثيل لبوذا تبعاً للطراز الإغريقى ، حتى ليخال الناظر إليها أنها تماثيل لأيوللو .

وبينما كان نفوذ الساكا والكوشان يتسع فى شمال الهند ، إذا بشبه الجزيرة الجنوبى يتجزأ إلى ممالك صغيرة كثيرة . فقد احتل ال «ياندا» الطرف الشمالى ، وال «تشولا» المنطقة التى تحتلها الآن ولاية «مدراس» فى أقصى الجنوب الشرقى ، وال «تشيرا» الساحل الجنوبى الغربى ، حيث ولاية «كيرالا» حاليًّا .

وجميع هؤلاء من الجنس الدرافيدى ، أما الشماليون منهم من الجنس الإندو- آرى . والخلاف بين الاثنين ليس فى الجنس فقط ، بل فى اللغة والثقافة أيضًا . وعلى مدى القرون الثلاثة الأولى أنتجت اللغة « التاميلية » - لغة الدرافيد - أدباً ذا ثقافة عالية .

أما مدن الجنوب الساحلية فقد وثقت علاقاتها التجارية منذ القدم مع العالم الغربى ، ودول جنوب شرقى آسيا ، حيث تغلغلت الحضارة الهندوكية فى كمبوديا ، تايلاند ، وإندونيسيا (١) .

وفى هضبة «الديكّان» بوسط الهند ، وعلى الساحل الشرقى ، حكمت سلالة «ساتافاهانا» القوية شعب «أندرا» الفخور بماضيه العريق وجذوره المتأصلة . ويتكلم هذا الشعب لغة ال «تيلوجو» . وقد حدث عام ١٩٥٣ عند تعديل حدود الولايات الهندية ، والسعى لتأسيس ولاية خاصة باللغة التيلوجية ، أن اختير للولاية اسم «أندرا»(٢) .

---

(١) لفظة (إندو-نيسيا) : أرخبيل الهند .

(٢) وهى ولاية «أندرايراديش» حالياً ، و«حيدرأباد» سابقاً حتى عام ١٩٤٨ ، عندما غزاها الجيش الهندى للدولة الاتحادية ، وخلع نظام حيدرأباد .

ولعل فى هذا الإجراء ما يضرب لنا مثلاً حيًّا على تعلق كل شعب بإقليمه وارتباطه به ، مفضلا ذلك على الانصهار فى دولة متكاملة موحدة : هى الهند .

إمبراطورية « الجوبتا »

وفى القرن الرابع ، أى بعد قرن من سقوط إمبراطورية الكوشان ، ظهرت سلالة «جويتا» القوية ، التى تأسست فى منطقة «ماجدًا» ، العاصمة القديمة لإمبراطورية الموريا ، والتى تعتبر هذه السلالة امتداداً لها ، وبسطوا نفوذهم على كل شمال الهند . ولكنهم لم ينجحوا مع ذلك ، كمّا نجح الموريا ، فى اقتحام هضبة الديكان ، والمناطق الجنوبية من الهند .

وفى أواخر القرن الخامس غزت الهند قبائل من « الهون » ، ودمرت إمبراطورية الجوبتا . ولكن بعد فترة من عدم الاستقرار ظهر الملك العظيم « هارشا » ، وأعاد لهذه الإمبراطورية مجدها السالف خلال حكمه الطويل (٦٠٦ – ٦٤٧ » . وبوفاته تعاقبت على الهند من جديد موجات من هجرات شعوب مختلفة ، ومنازعات بين الممالك المتنافسة فى أراضيها .

ويعتبر عادة عصر الجوبتا وامتداده تحت حكم الملك هارشا ، هو العصر الذهبى فى تاريخ الهند القديم . فقد تميز بازدهار الفنون والآداب والعلوم . وشبّهه المؤرخون بعصر النهضة الإيطالية .

ففى هذا العصر اخترع مجهول هندى علامات مكتوبة ترمز إلى الصفر ، وإلى الأرقام من ١ إلى ٩ . وهى نفس العلامات التى نقلها العرب فيما بعد إلى الغرب . كما كان الجراحون الهندوك يجرون عمليات تجميل على الوجوه المشوهة . وقد استمرت البوذية فى الازدهار فى عهد الجوبتا ، بالرغم من اعتناقهم للديانة الهندوكية .

الغزو التركى والمغولى

وبعد وفاة الملك هارشا عام ٦٤٧ ، غزت شمال الهند قبائل من أصل تركى ومغولى ، وفدت إليها من آسيا الوسطى .

وكان من أثر ذلك أن شمل التحوير والتكييف نظم المجتمع الهندوكى . وظهرت أعداد كبيرة من الطبقات والطوائف الجديدة — وتقول النظرية إن البراهمة — وكانوا لا يزالون يسيطرون على مقادير الحياة فى الهند — أثارهم الاضطراب والبلبلة الناتجة عن تدخّل القبائل الأجنبية ، وامتزاجها بالشعوب الهندوكية . فأخذوا يعملون على إيجاد وسيلة لحماية الهندوكية من هؤلاء الدخلاء على المجتمع الهندوكى . فخلعوا على زعماء تلك القبائل صفة الأعضاء فى طبقة ال «كشاتريا» المحاربة ، وعلى كهنتها صفة الأعضاء فى طبقة البراهمة ، ولكن فى مستوى أقل من طبقة البراهمة المحلية ! وقسّموا كل قبيلة إلى ثلاث أو أربع مجموعات ، تتمشى درجاتها مع تسلسل الطبقات الهندوكية .

ومن بين الشعوب الأولى التى وفدت إلى الهند فى تلك الفترة المتقلبة من العصور السابع عشر ، والثامن عشر ، والتاسع عشر ، شعبا «المهرات» و «الراجيوت» ، وهما الشعبان اللذان كان لهما دور هام وحيوى فى الحياة الهندية .

والراجيوت شعب أرستقراطى مقاتل ينتسب إلى طبقة الكشاتريا . وهم يشبهون فى ذلك فرسان العصور الوسطى فى أوروبا ، وقد أسسوا عدة ممالك فردية صغيرة فى شمال الهند ، ولكنهم فشلوا فى إيجاد الوحدة بينها .

والراجيوت أشد من قاوم الغزو الإسلامى للهند فى القرنين الحادى عشر ، والثانى عشر ، ثم اضطروا إلى التقهقر أمام ضغط الغزاة المسلمين ، والتحصّن فى منطقة

«الراجستان» الصحراوية الصخرية القاحلة[1] .

وكان من عادتهم عند محاصرة جيوش المسلمين لهم ، وشعورهم بدنو الهزيمة الحتمية ، أن تتجمع النساء والأطفال للإقدام على تضحية «جوهار» البشعة ، وهى القيام بحرق أنفسهم جماعة وهم أحياء . على حين يظل المقاتلون من الرجال يحاربون حتى آخر رجل منهم دون استسلام .

وتأسست أولى مراكز القوة فى الشمال فى وادى نهر الجانج ، فى المنطقة التى تحتلها الآن ولاية بيهار . ولكن يبدو أن هذه المراكز تحولت بعد القرن الثامن عشر فى اتجاه الغرب ، بعد أن نشأت العلاقات التجارية مع الدول الغربية ، عن طريق موانئ منطقتى «جوجارات» و «مهارشترا» ، وأهمها ميناء بومباى . وتمر الطرق الجديدة بمدينة دلهى ، التى بدأت تحتل مكانتها الهامة خلال القرنين التاسع والعاشر .

أما فى الجنوب فيبدو أن أصل سلالة «بلاقا» – وهى التى كانت تسيطر على مناطق الجنوب الشرقى للهند بين القرن السادس والثامن – كان برهميًّا وأدخلت معها الثقافة السنسكريتية الإندو – آرية ، التى تعارض الثقافة التاميلية المحلية ، الأمر الذى زاد فى الفجوة والقطيعة بين حضارتى الجنوب والشمال .

وانحسر العصر الهندوكى فى تاريخ ما بين عامى ١٠٠٠ و ١٢٠٠ ، أى خلال العصر الإسلامى . ثم تبعه العصر البريطانى ، الذى يصعب تحديد بدايته بدقة .

---

(١) ولاية الراجستان هى الولاية المتاخمة لدلهى جنوباً ، وعاصمتها مدينة «جايبور» . وبها تقع مدينة «أجرا» وفيها ضريح «التاج محل» .

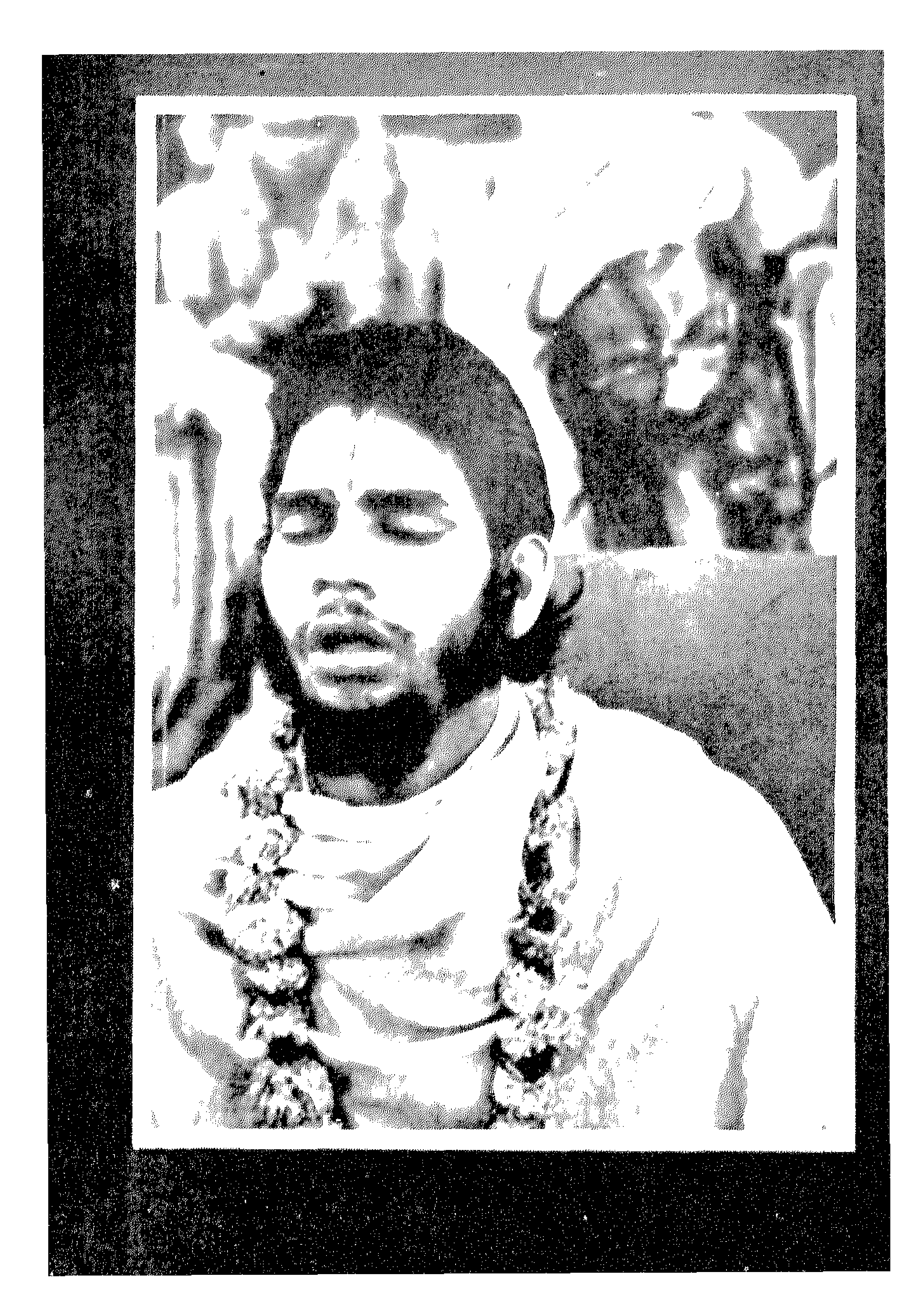
الهندوكية

الدين القومى للهند هو الهندوكية . وقد ظهر هذا التعبير فى أول الأمر عندما كانت الهند تحت السيطرة الإسلامية . وكان المقصود به هم الهنود الوطنيين الذين لم يدخلوا فى الدين الإسلامي الحنيف . ولكن الهنود أنفسهم لم يبدءوا فى تسمية دينهم بالهندوكية إلا فى أدبهم الحديث .

ويطلق على هذه الديانة باللغة الألمانية « البرهمية » . ويرجع هذا الاصطلاح إلى طراز معين من الكهنة يدعى « البراهمة » ، وهم الذين يتزعمون هذه الديانة .

نظام الطبقات

وقد كوّن البراهمة من بينهم طبقة معينة ، تفرّع منها بصفة عامة نظام الطبقات والطوائف الهندوكية بأجمعها . وهذا النظام لعب ، وسوف يظلّ يلعب ، دوراً هامًّا



فى الحياة الاجتماعية الهندية .

وينقسم المجتمع الهندى إلى أربع طبقات رئيسية ، تبعاً للتقليد الكلاسيكى الذى سنّته شريعة «مانو» (١) . فالطبقة العليا هى طبقة «البراهمة» ، وهم الكهنة ورجال العلم والمعرفة . وتليها طبقة «كشاتريا» ، وتضم المحاربين النبلاء ورجال الإدارة . والثالثة طبقة «فايشيا» ، وتضم رجال المال والتجارة . أما مجموع العوام من الفلاحين ، والعمال الحرفيين ، فيكوّنون الطبقة الرابعة «شودرا» .

وأخيراً يتذيل السلّم الهرمى طبقة المنبوذين ، ويطلق عليهم «باريا» .

وقد يهون الأمر لو اقتصر الحال على هذا العدد من الطبقات . بل هى تتفرع وتتجزأ إلى طوائف ينوف عددها على الثلاثة آلاف . وهى تتكاثر وتتجزأ بدورها إلى مالا نهاية !

وعلى ذلك فحصر الطبقات فى أربع ، ما هو إلا خرافة اجتماعية !

وعناصر المجتمع الهندوكى الحالى تتكون من هذه الآلاف المؤلفة من الطبقات والطوائف . لا يتزاوج أفراد الطبقة أو الطائفة الواحدة منها من أفراد الطبقة أو الطائفة الأخرى . ولا تضمّهم كذلك مائدة طعام واحدة ! وتفصل بين الطبقة والطبقة ، والطائفة والطائفة ، محظورات ومحرمات قوية ، والخوف من الدنس

ولا يميل الهندوك إلى التحدث عن هذا النظام مع الأجنبى . ويصرحون بأن

---

(١) «مانو» هو أبو البشرية فى الأساطير الهندوكية القديمة . وهو ما يقابل سيدنا آدم فى الشرائع الأخرى . وسنت هذه الشريعة عام ٢٠٠ ق . م تقريباً ، بروح مختلفة . فهى يتتجه نحو التهذيب والإرشاد عنها إلى القصص الشعبى البطولى . وتضم هذه الشريعة مجموعة من قواعد السلوك ، تضفى أهمية خاصة على الشعائر الدينية ، وخاصة على الفصل بين الطوائف الأربع الكبرى .

هذه الآلاف من الطوائف المحلية . ما هي إلا جزئيات من الطبقات الأربع الكبرى البدائية ، ولكنها ليست تقسيماً حقيقيًّا للمجتمع .

ولكنهم يتجاهلون الحقيقة فى قولهم هذا . وهو أن هذا التقسيم يقرر ويحدد فعلاً نهج الحياة فى شبه القارة الهندية .

وتعتبر كل من الطبقات الأربع أنها خلقت ، كلّ حسب نشاطها ، من جزء معين من جسم الخالق ! فالبراهمة خلقوا من فمه ، والكشاتريا من ذراعيه ، والفايشيا من جذعه ، والشودرا من قدميه !

وتكلف كل من هذه الطبقات بأعمال محددة ، وواجبات تلتزم بها . وإن كل من أدى الواجبات التى تفرضها عليه طبقته بإخلاص وأمانة ، فقد ضمن أن يرتقى إلى طبقة أعلى عندما يبعث من جديد !

وحتى المرأة . إذا ما أدت واجبها على الوجه الأكمل فى إطار طبقتها – فيمكنها أن تبعث فى صورة رجل فى حياتها الثانية ، إذا ما طمعت فى ذلك !

أما إذا سلك الفرد منهم حياة لا أخلاقية ، أو خالف تعاليم طبقته ، فسوف يبعث فى طبقة أدنى من طبقته التى ولد فيها . أو هو قد يبعث فى صورة حيوان أو حشرة ! . .

وإذا كانت الطبقات الأربع الرئيسية قد خلقت من جسم الخالق : فمن أين إذن جاءت طوائف المنبوذين ؟ (١) .

---

(١) يضم الهندوك الطبقات الأربع الكبرى فى طبقة واحدة ، يقال لها « فارنا » . والطبقات الأدنى فى طبقة واحدة يقال لها « جاتى » . فيقال إن هذا الشخص من طبقة الفارنا أو الجاتى . أما كلمة طبقة كما تعرف باسمها الأجنبى .(Caste) ، وهى كلمة مشتقة من البرتغالية ، فهى تعريف الأجانب فقط لنظام الطبقات .

وتقول التقاليد الهندوكية إن هذه الطبقات الجديدة ، ما هى إلا سلالة للزواج المختلط . فكلما تضاعفت أعداد الطبقات الجديدة ، زاد الامتزاج . وكل زواج مختلط يخلق طبقة جديدة ، وهكذا . فى حين يرجع البعض الآخر ذلك إلى كثرة توالى قبائل الغزاة على مرّ التاريخ ، وبدون انقطاع ، على الأراضى الهندية .

ولكل من هذه الطبقات والطوائف التى لا يحصرها عّد ، عاداتها وتقاليدها الخاصة التى تلائمها ، وقواعدها ، وحياتها التعاونية والطائفية .

والانتساب إلى الطائفة يكون عن طريق الولادة ، ولا سبيل سواه ! وطالما أن الفرد يمتثل إلى طريقة الحياة ، وقواعد السلوك الأساسية التى تفرضها عليه طبقته ، فهو يستمر فى الانتساب إليها .

ولا تقع هذه القواعد تحت حصر . وإن كان عددها يتناقص الآن تدريجيًا عما كان عليه من قبل .

قواعد التغذية

تعطى جميع الطبقات أهمية خاصة لمسألة الطعام . فيصرح بعضها بأكل اللحوم : الضأن والمعيز والدواجن . على حين يصرح بالأسماك فقط عند بعضهم الآخر . ويحّرم على بعض الطبقات الأخرى أكل اللحم والسمك معاً ، وإنما يسمح لها بأكل البيض . ويحرّم بعضهم أيضاً أكل البيض ، إذ قد يحتوى على جنين كتكوت !

وقواعد التغذية الهندوكية ليست بسيطة ، بل هى فى الحقيقة أعقد مما قد يخطر على بال الإنسان العادى . ولا تقتصر هذه القواعد على ما يحلّل أكله ، أو مَنْ يأكل مع مَنْ على مائدة واحدة فهاتان النقطتان تحكمها قواعد صارمة تقتصر على

أعضاء الطبقة الواحدة . بل تتعلق هذه القواعد بمسائل أخرى كثيرة : من أية يد يتناول الفرد طعاماً ذا خاصية معينة ؟ وتعنى هذه المسألة الهامة فى العائلات الراقية بصفة خاصة . . من سيتولى طهى الطعام ! وهناك نقطة هامة أخرى : من هو الذى لا يجب أن يقع نظره على الطعام ؟

كما أنه يجب الأخذ فى الاعتبار الفارق بين الطعام والشراب ! وذلك فيما يتعلق بما إذا كان الطعام سيطهى بالماء (كاتشتشا) أو بالسمن السائل (ياكّا) ، وهو الطعام المميز المفضل !

كما يرتبط التدخين ارتباطاً وثيقاً مع قواعد المعاشرة فى نطاقها الضيق . بمعنى أنهم إذا كانوا يدخنون الغليون أو النارجيلة جماعة ، وهى تتداول بين أيديهم فيما بينهم . فهنا يتوقف التدخين على درجة الطهارة الطبقية للشريك فى التدخين !

التلوث والنجاسة

أما درجة التلوث والنجاسة عن طريق لمس فرد من طبقة أدنى ، فتختلف أيضاً من طبقة إلى أخرى . والمنبوذون هم الطبقة النجسة الدنيا . ولا يقتصر الأمر هنا على مجرد اللمس ، أو وقوع ظلّهم النجس على أفراد الطبقات الأعلى . بل يذهبون فى ذلك إلى أبعد مما يتصوره العقل . ففى ولاية كيرالا فى الجنوب مثلاً ، يحرّم إلقاء نظرة على المنبوذ ! وعلى المسكين أن يحرص على أن يختفى بعيداً عن مرمى البصر من الطبقات العليا ! وتحدد هذه المسافة بستة وثلاثين قدماً على الأقل ! ! . .

وقد حاصرهم القانون الهندوكى الاجتماعى فى شبكة من القيود والأغلال ، ظلوا يرسفون فيها منذ أجيال مضت حتى الآن . يعانون فيها من الحاجة والفاقة

والبؤس والمهانة ، مما قد يعجز عنه الوصف .

فمحظور عليهم دخول المعابد ، أو التجول فى مناطق معينة ، أو الشرب من منابع المياه المخصصة للهندوك ، أو لبس الأحذية ، أو حمل المظلة ، أو حلب البقر ، أو حمل الحيوانات المستأنسة ، أو تزيين ملابسهم ومساكنهم . وهم الذين يتولون فقط كسح المجارى ، وكنس الشوارع ، وتنظيف الطرق من الحيوانات النافقة ، يأكلون جيفها ، ويملّحون جلودها !

وهم يكوّنون الأغلبية الساحقة من عمال الزراعة للفترات الموسمية . ولكن محظور عليهم تملّك الأرض !

والغريب فى الأمر أن هذه الطبقة التعيسة تنقسم بدورها إلى ما ينوف على أربعمائة طائفة ! تظهر كل طائفة منها من الاحتقار للطائفة التى تليها ، ما تظهره الطبقات العليا الهندوكية من الاحتقار إلى طائفة المنبوذين بأكملها !

ويكوّن المنبوذون حوالى ١٤٪ من عدد سكان الهند . ولو أن هذه النسبة لا تمثل الواقع ، لأن الكثير منهم يمتنعون عن الكشف عن هويتهم ، وإعطاء البيانات الصحيحة إلى رجال التعداد . ونعتقد أنهم يكونون خُمس سكان البلاد ، مع مراعاة أنه لا يمكن الفصل بين طبقة المنبوذين ، وبين الطبقات الدنيا الأخرى ، وهى كثيرة .

وعلى كل حال فقد تغيّر وضعهم الآن عن ذى قبل ، بعد أن نصّت المادة (١٧) من الدستور الهندى الصادر عام ١٩٥٠ ، على إلغاء لفظة منبوذ (باريا) ، وجميع القيود المتعلقة بها ، وأهمها : منعهم من دخول محال البيع ، والمطاعم ، والملاهى ، وجميع الأماكن الأخرى التى تؤمها الجماهير ، واستعمال المواصلات العامة ، ومنابع المياه وأحواض المعابد للاغتسال والتطهير . وأهم من

ذلك كله ، فقد حرّم القانون عدم استثنائهم من معاهد التعليم الحكومية .

إلاّ أن تطبيق هذه القيود لم تختف تماماً حتّى الآن . فأغلبيّتهم فقراء جهلاء ، هيّابون ، شديدو الحياء فى المطالبة باستعمال حقوقهم الدستورية . ولكن حالهم تحسن بعد أن أحرزوا بعض الوزن السياسى . فجميع البالغين منهم يتمتعون الآن بحق الانتخاب ، سواء فى البرلمان المركزى ، أم فى برلمانات الحكومة الاتحادية . ولهم قوائم خاصة بهم ، تُقيد فيها أسماء مرشحيهم .

ومنهم من تولى رئاسة الوزارة فى إحدى الولايات الاتحادية ، وانتخب رئيساً لحزب المؤتمر عام ١٩٦٢ ، وهو الدكتور سانجيفايا . ومنهم أيضاً من وصل إلى مرتبة الوزارة فى الحكومة المركزية الهندية فى عهد نهرو . وصار عضواً فى لجنة وضع الدستور الهندى ، وهو الدكتور أمبدكار ، زعيم طائفة المنبوذين .

وقد أُدخلت طائفة المنبوذين بعد إلغاء لفظة (ياريا) فى المادة (١٧) من الدستور ، ضمن الطوائف المسماة (Scheduled Castes) ولفظة (Schedule) أى جدول ، يقصد بها الجدول الذى وضعته الإدارة البريطانية قديماً للمجموعات التى كانت تمنحها إعانات مالية خاصة ، وتضفى عليها الآن الحكومة الهندية حمايتها . وأغلبها بقايا القبائل الأولى التى لم يمتصها المجتمع الهندوكى ، ويتركز معظمها فى المناطق الجبلية فى جبال (أسّام) — وهى القبائل المشهورة باصطياد رءوس الأعداء ! — وفى جبال (نلجيرى) بولاية مدراس (واسمها الحالى ولاية «تاميل نادو») ، ويمنحها الدستور الهندى الحماية والامتيازات الممنوحة للطبقات الأخرى .

القيود المفروضة على الطبقات

تمسّ القواعد والقيود المفروضة على الطبقات عدداً ضخماً من أنشطة الحياة المختلفة . منها الاغتسال ، وطريقة تنظيف الأسنان ، والملبس ، والجلوس . ولكل من الطبقات شعائرها الدينية المختلفة ، والتزاماتها ، واحتفالاتها ، وطرق الخلافة فيها .

ولكن أهم هذه القيود هو ما كان يتعلق بالزواج . وبصرف النظر عن القاعدة العامة التى تحرّم الزواج بين أفراد الطبقات المختلفة ، فإن هذه القيود تؤثر حتى على الزيجات التى تتم بين الأفراد من ذوى القربى . فهى تحدد درجة القرابة المسموح بها للزواج . وبصفة عامة فالزواج محرم بين أولاد العمومة . وفى الجنوب مثلاً يسمحون ، بل يرحّبون ، بزواج الشاب من ابنة خالته .

وبين طبقة البراهمة من طائفة « النامبوردى » بولاية كيرالا ، لا يسمح بالزواج إلا للابن البكر فقط . أما باقى أبناء العائلة الذكور فيظلون هكذا يحيون حياة العزوبية إلى ما شاء الله ، يفلحون أرض العائلة . ولكن يسمح لهم فى الوقت نفسه بإنشاء علاقات عاطفية مع بنات طائفة « ناير » ، وهى الطائفة التى تليهم مباشرة . وتعتبر الطائفة الأخيرة أن مثل هذه العلاقة بمثابة زواج شرعى !

ويسبب التأخير فى زواج الفتيات بين الطبقات العليا قلقاً شديداً إلى الوالدين . والعار كل العار إذا ما بلغت الفتاة سن الرشد وهى مازالت عانساً . ولذا كان لزاماً على الوالدين ابتياع عريس يدفعون فيه مهراً خياليًّا . وقد تمخضت عن هذه الحالة نتائج غريبة . منها العادة الشهيرة لزواج طائفة « كولين » . فإن الشاب منهم يتزوج غيابيًّا ، نظير دفع مبلغ طائل من المال ،

فى حين تظل الفتاة مع عائلتها ، وترى الزوج فقط إذا ما أتت به الصدفة وحدها إلى مقرها ، الذى ربما كان له فيه أكثر من زوجة ! وما على الزوج إلا أن يطلع أهل الفتاة على عقد الزواج ، ليستعمل منزله كفندق رخيص ! وزيادة على ذلك ، وبدون أية تكلفة ، فله الحق فى التمتع بالفتاة التى تعتبر زوجته الشرعية .

ووأد الأطفال – والوفيات على العموم – كان سببه ضيق العيش بين الطبقات الفقيرة . أما وأد الفتيات بالذات فكانت عادة شائعة بين الطبقات العليا ، وخاصة بين طبقة الراجيوت .

وكثيراً ما تترمل الفتاة وهى فى سن ما بين الخامسة والعاشرة ، وتظل هكذا طوال حياتها . ومن هنا نشأت عادة انتحار الأرامل «ساتى» . ومرجعها إلى تقاليد الفروسية التى تقضى بدفن المتعلقات مع الملك أو الفارس عند وفاته . . ومنها زوجاته !

وكانت عادة الساتى تحتم على الشابة من الطبقات الهندوكية العليا إلقاء نفسها فى النار مع زوجها وهو على محفة الحرق . وأغلب الظن أن يكون كهلاً طاعناً فى السن . والمفروض أن الشابة – أو الطفلة – تتطوع لهذا العمل الفدائى ، حزناً على زوجها العزيز الغالى الراحل ! ولكن فى الحقيقة ، وفى كثير من الحالات ، يلجأ الأهل إلى العنف والقسر لإرغام الشابة تعيسة الحظ على الإقدام على هذه التضحية الجوفاء التى لا طائل تحتها . وفى بعض الأحيان تخدر الفتاة حتى تقدم على هذا العمل لا شعورياً !

وقد بدأت هذه العادة الهمجية فى الانحسار ، عندما سمحت شركة الهند الشرقية عام ١٨١٣ للمبشرين المسيحيين بالدخول إلى الأراضى التى كانت تسيطر عليها فى هذا الوقت . ولم تكن حتى هذا التاريخ تتدخل فى الحياة الاجتماعية أو

الدينية للهنود .

ولكن هذه العادة لم تبطل إلا فى عام ١٨٢٩ ، عندما قام المصلح الاجتماعى الهندوكى (رام موهان روى) – ١٧٧٢ – ١٨٣٣ ، باستنكار القوة فى إرغام الشابات والأطفال الأرامل على التضحية بأنفسهن . وبأن مثل هذه التضحية لم ترد فى النصوص الهندوكية المقدسة . وكان على أثر ذلك أن وضعت شركة الهند الشرقية العقوبات الصارمة على كل من يشترك فى هذه العادة .

وهناك قيود المهنة ، فيخلف الأبناء آباءهم عادة – نظريًّا على الأقل – فى المهنة التى يحترفونها . وعلى هذا فقد تكونت على مّر الأجيال طوائف من الحرف المختلفة ، كالغسالين ، والبستانيين ، والنساجين ، والحدادين ، والسقايين ، والنجارين ، والمحاسين ، والحلاقين ، والحائكين ، وعاصرى الزيوت ، والصيّاغ ، وهكذا إلى مالا نهاية .

وهذا بخلاف مهمة الفلاحة ، والتوظف ، والعسكرية ، فهى مفتوحة أمام الجميع .

ولكن تقاليد وراثة المهنة العائلية قد ضعفت الآن إلى حد كبير ، وإن كان بعضها مازال قائماً حتى الآن . وأهمّها طائفة (الدّوبى) الشهيرة فى جميع أنحاء الهند ، فهى تحتكر غسيل وكىّ الملابس فى جميع أنحاء شبه القارة . أما الفقراء فيغسلون ملابسهم بأنفسهم بطبيعة الحال ! ولا حاجة لهم بكيّها !

أما طبقة البراهمة فهى تحتكر الوظائف الكهنوتية ، طالما أن أقلية منهم فقط تنصّب ككهنة فى المعابد الهندوكية .

وكمبدأ ، تحتل كل طائفة معينة منطقة جغرافية محدودة ، يتكلم أفرادها نفس اللغة ، أو اللهجة على الأقل ويقع موطنها – نظريًّا – فى منطقة ذات لغة

موحدة . وهذا يعنى أن تجتمع الطائفة فى ولاية من الولايات . ولكن نظراً لتوالى الهجرات الداخلية . فقد ماعت الحدود بينها وتداخلت ، حتى أصبح من المستحيل تحديدها بدقة . إذ قد نجد ما يتراوح بين مائتى وثلاثمائة طائفة مميزة فى المنطقة اللغوية الواحدة ، وما يقرب من العشرين أو الثلاثين طائفة فى القرية الواحدة .

وقد تعتمد بعض الطوائف على طوائف أخرى فى النشاط الاقتصادى ، ولكنها تنفصل عنها تماماً فى الناحية الاجتماعية .

ومن المهن التى يقيدها النظام الهندوكى بدقة هى طائفة الحلاقين . إذ يتطلب فى محترفها أن يكون من الطبقات « النظيفة »(١) . حيث إنه يقوم على خدمة بعض طبقات معينة بلا تحفظ . فهو قد يحلق لهم رءوسهم أو ذقونهم ، أو يعنى بأصابع أيدى بعض الطبقات الأخرى . ولكنه لا يمس أصابع الأقدام بأية حال ! كما أنه لا يخدم بعض طبقات معينة على الإطلاق .

ويسلك بعض الحرفيين مسلك الحلاقين ، وخاصة طائفة غسالى الملابس (الدّوبى) .

وبين طبقة البراهمة وطبقة المنبوذين تتدرج طبقات « الفارنا » الثلاث . فيعتبر قوم الراجيوت المشاغب المحارب من طبقة الكشاتريا . وال « بانيا » ويتخصصون فى إقراض المال والتجارة ، من طبقة الفايشيا . والفلاحون على اختلاف مراتبهم يتجمعون فى طبقة الشودرا .

وللطبقات العليا الثلاث الأولى : البراهمة ، والكشاتريا ، والفايشيا ، من

---

(١) أفراد الطبقات المعترف بنظافتهم نظافة مطلقة ، هم من لهم الحق فى لبس « الخيط المقدس » . وتتقبل طبقات البراهمة العليا من أيديهم جميع أنواع الطعام .

الميزات والصفات ما يؤهل أفرادها « للولادة الثانية » ! بمعنى أنه عندما يبلغ أطفال الطبقات الثلاث سن الرشد ، يقيمون حفلاً شعائريًّا يكرسونهم للبدء فى « حياتهم الثانية » . . . وهى الحياة الروحية . ويصبح للشبان منهم عقب ذلك الحفل مباشرة ، الحق فى حمل « الخيط المقدس » . وهو خيط رفيع يضعونه على الجسم العارى ، ويمرّ من الكتف الأيسر حتى يصل أيمن الوسط .

ومن الطريف أن أكبر عقبة تعترض الآن سبيل المجتمع الهندوكى ، هى حرمان الطبقة الرابعة – الشودرا – من ميزة الولادة الثانية ، وبالتالى من حق حملها للحزام – الخيط – المقدس ! ! . .

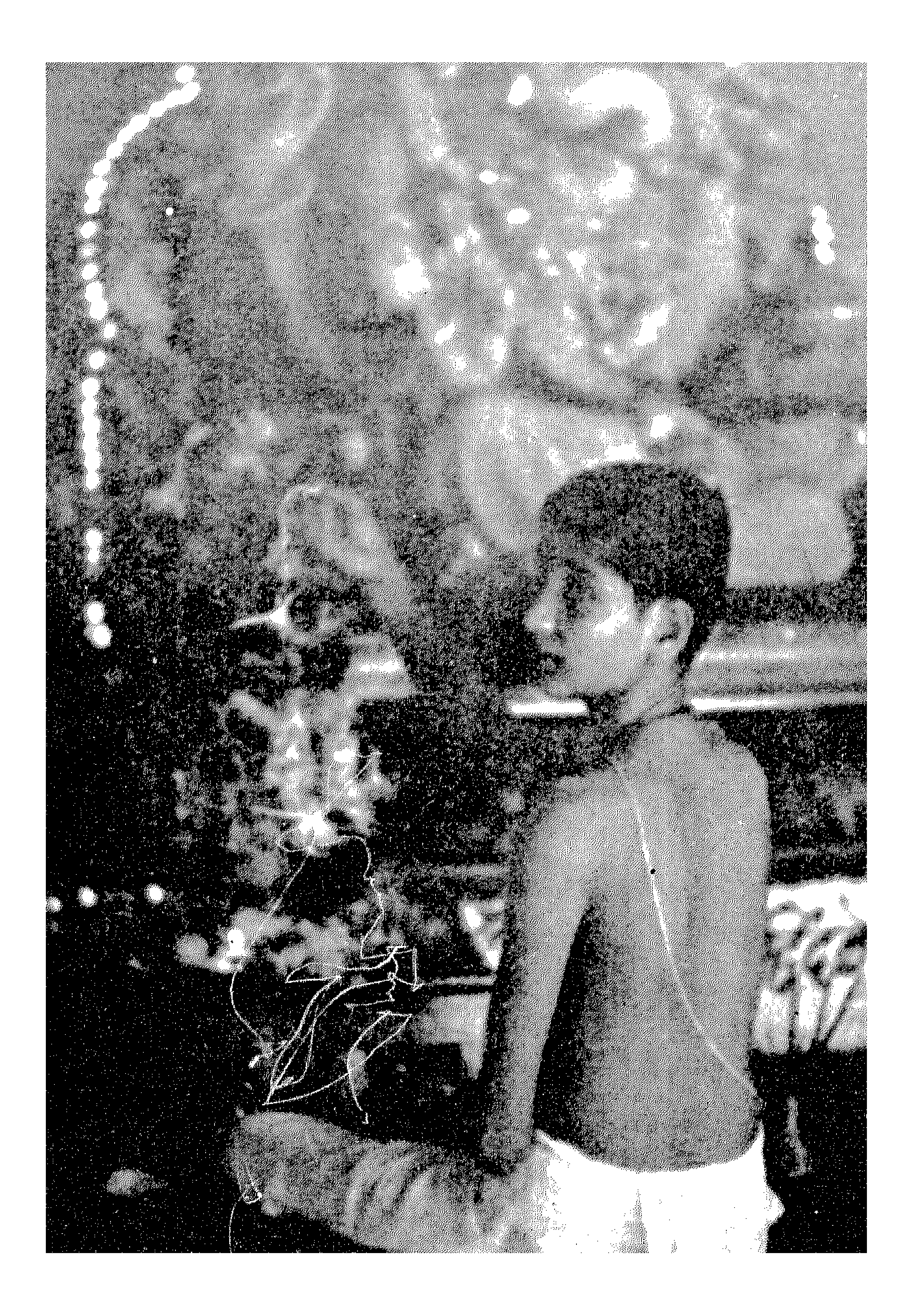
* * *

ولا يمكن تفهم الهندوكية إلا إذا أدركنا علاقة البراهمة « بالطبقة » . ولعل الفجوة الكبرى فى كتبهم المقدسة – الفيدا – هى افتقارها إلى الإشارة إلى الطبقات . وهى وإن كانت تشير إلى أسماء الطبقات الأربع فقط فى موضع واحد منها ، إلا أنها لا تشير إلى مضمون نظام الطبقات بالمعنى الذى انتحلته إلى نفسها ، والذى تتميز به الهندوكية دوناً عن باقى الديانات الأخرى .

فالدستور الأساسى للهندوكية هو الطبقة . أى الحقوق والواجبات الشعائرية التى تمنحها أو تفرضها ، وتحدد مركز البراهمة منها . فلا وجود للهندوكى بدون طبقة !

وقد يختلف موقف الهندوكى بالنسبة إلى سلطة البراهمة اختلافاً بيناً . فمن

« الولادة الثانية »
شاب برهمى فى حفل إلباسه « الخيط المقدس »
... والأزمة المستحكمة مع طائفة الشودرا



الخضوع غير المشروط إلى هذه السلطة ، إلى المنازعة فيها . وهذا يعنى فى التطبيق العملى أن الهندوكى يرفض زعامة البرهمى ككاهن فقط ، ولا يسعى إلى مشورته ونصيحته . أما مركز طبقته فتحدده أولاً وأخيراً العلاقة الإيجابية أو السلبية مع البراهمة .

فالطبقة كانت ، وستظل دائماً ، مركزاً اجتماعيًّا تحدده العلاقة مع البراهمة .

الطبقات الهندوكية الأربع

١ — البراهمة

كانت مصلحة البراهمة فى احتفاظهم بمركز القوة الذى نبع من احتكارهم للصفات السحرية ، واستعمال وسائل القهر ، والتدريب والتعليم .

وقد زودتهم الامتيازات التى منحها إليهم الملوك والأمراء بالوسائل الكفيلة لردع الأديان المنشقة عن الهندوكية ، كالبوذية والجانية ، وتطلعات كبار التجار والنقابات المهنية .

هذا وقد زادت قوة البراهمة خلال الفتوحات الأجنبية للهند . فبالرغم من الدعاية الإسلامية التى صاحبها تحطيم التماثيل والصور والمعابد والهياكل ، فإن الفاتح أذعن أخيراً إلى استمرار الثقافة الهندوكية ودوامها .

ومنذ القرن الثانى لعصرنا الحالى ، حتى بداية الفتح الإسلامى للهند – أى ما يقرب من ألف عام – نجد أن نظام الطبقات فى توسع مستمر ، وإن كان قد

انكمش قليلا نتيجة للدعاية الإسلامية .

ونظام الطبقات نظام مغلق . فهو نتاج الفكر البرهمى الجامد . ولم يصل إلى ماهو عليه من قوة إلا عن طريق نفوذ البراهمة ككهنة فى المنازل . يبدون المشورة لأهلها ، ويتلقون منهم الاعتراف . كما كان للنهضة فى الإدارة البيروقراطية أثر كبير فى زيادة الطلب عليهم من الملوك والأمراء ، لما كانوا يتصفون به من مهارة فى الشئون الكتابية .

وكانت كلمة « برهمى » تعنى فى كتاب « الريجفيدا » (صلاة) . فى حين أنها تعنى الآن (السلطة المقدسة) و (القداسة) . أما البراهمة أنفسهم فقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك . فيقال عنهم « البراهمة الذين يعلّمون الفيدا . ويدرّسونها . هم آلهة آدميون » . وهذه الصفة لم يحظ بها أى ملك هندوكى عظيم من قبل .

ويقتصر نشاط البراهمة على أعمال من شأنها أن ترفع من شأن طبقتهم ، فنشاطهم محصور فى تقديم الضحايا ، ودراسة الكتب المقدسة (الفيدا) ، وتلقّى الهدايا ، وعلى الأخص الأراضى والجوهرات [1]! والزهد والتقشف .

ويعتبر البراهمة وظائف طبقة الشودرا ، وهى الفلاحة والتجارة ، وعلى الخصوص إقراض الأموال بالفائدة ، من الأعمال المهنية التى لا تليق بطبقتهم . ولو أنهم يمارسونها على مضض فى وقت الحاجة !

ويقوم البراهمة ببعض الخدمات المنزلية . إذ يقضى تسلسل النظام الطبقى باستخدام الأعداد الكبيرة من الخدم « الطاهرين » ، للقيام على خدمة رب وربة العائلة ، وخصوصاً تقديم الماء إليهما .

(١) أهدى مهراجاً السيخ «رانجيت سنج» ماسته التاريخية (كوهى نور) إلى معبد «جاجاناثا» الشهير فى مدينة يورى .

أمنا البقرة

كاهن برهمي يتبرك بالبقرة في أحد المعابد



كما تقرر مثل هذه الظروف إلى حد كبير فى وقتنا الحاضر ، احتكارات معينة لطبقة البراهمة ، أهمها مهنة الطهاة فى منازل الطبقات العليا . ومنها الوظائف الإدارية التى تحتاج إلى مهارات كتابية أو تعليمية . أما المهن الطبية فتمنعهم عنها التزامات شعائرية . وكذلك نسبة اشتغالهم بالمهن الهندسية ضئيلة جداً .

ولا ينتسب البراهمة إلى قبائل معينه . بالرعم من أن أكثر من نصفهم يعيش فى حوض نهر الجانج الأعلى ، وهو قاعدتهم الأساسية ، وفى البنغال . وكانوا فى مبدأ الأمر من السحرة الذين تحولوا تدريجيًا إلى طبقة مقدسة من المثقفين ، تلقّوا الدراسات فى القوانين المقدسة والممارسات الشعائرية ، وفى حفظ كتب الفيدا عن ظهر قلب . وكانت هذه الأعمال الكلاسيكية تنتقل شفاهة تحت وصاية معلم برهمى يتلوها كلمة كلمة .

وتنص بعض أجزاء من كتب الفيدا ، وهى الأثار فافيدا ، على أن كهنة بيوت الإمارة لابد أن يختاروا من ين طبقة البراهمة . كما نشأ علم التنجيم من هذه المدرسة أيضاً . فانتصار الملك فى المعارك ، ونجاحه فى حياته ، كان يعزى إلى براعة السحر والتنجيم فى المقام الأول . كما كان يعزى فشله إلى كاهن العائلة ، أو إلى جريرة شعائرية ارتكبها صاحب الشأن .

ولما كان البراهمة يحتفظون بعلومهم سرًّا مغلقاً ، فقد أصبح التعليم عندهم قاصراً على سلالتهم . وعلى ذلك فقد ظهرت لديهم ، بجانب الكفاءات التعليمية للكهنوت ، كفاءات عن طريق الولادة ليس إلاّ . . !

ولما كان نشاط البراهمة لا يخرج عن القيام بتقديم الضحايا ، والتعليم والتهذيب ، وتحكمهم فى آداب السلوك والرسميات والتقاليد ، فكان من العسير استغلال هذه الخدمات فى كسب معاشهم . فالبرهمى يقبل الهدية « راكشينا » ،

وليس الأجر ! وإعطاء الهدية للبرهمى نظير خدماته واجب شعائرى مقدس . والتخلف عن أدائه يجلب اللعنة على صاحبها .

وزيادة على ذلك فإنه يعتقد أن قوة البرهمى تمكنه من الانتقام بشدة ممن ينكر عليه هذه الهدايا ، وذلك عن طريق صب اللعنات . أو تعمد الخطأ فى إقامة الشعائر ! مما يسبب غضب الآلهة !

وقد تطوّر هذا الانتقام العادل إلى إجراء نظامى . تقرر على أساسه الحد الأدنى للهدية ، وحُرمت بموجبه المنافسات غير العادلة بين البراهمة .

وتتفوق امتيازات البراهمة الاجتماعية والاقتصادية على ماعداها من امتيازات كهنة الطبقات الأخرى . ومن العجيب أنه حتى لبراز الكاهن البرهمى دلالة دينية . يستعملونه فى العرافة وعلم الغيب !

كما أنه يتحتم على القضاة الامتناع عن الحكم لصالح غير البرهمى . فالاحترام الواجب تجاه البرهمى ، أو على الأقل لدعواه ، يفوق الاحترام الواجب للملوك والأمراء .

والمزايا الاقتصادية التى تصاحب مطالبة البرهمى بالهدايا « دانام » ، تتلخص فى تعويضات مدفوعة من جانب الحكام . وهى حسب الترتيب التالى تبعاً لأهميتها : الأراضى ، الماشية ، إيرادات عقارية أو ضريبية ، نقود ، جواهر ، .

وأعلى منزلة للبرهمى كانت ، ولا تزال ، فى شغله منصب الكاهن (بوروهيتا) فى قصر واحد أو عدد من الأمراء والحكام . فهو الموجّه الروحى لأعمال الحاكم ، سواء أكانت شخصية أم سياسية . ومن هنا تنبعث القوة السياسية والاجتماعية لهذه الطبقة . فمن الصعب أن يكون الحاكم حاكماً بدون كاهن ، أو الكاهن كاهناً بدون حاكم .

وينتظر من الكاهن البرهمى عند رؤيته لباكورة أحفاده ، أن يعتزل عمله ويذهب إلى الغابة ليقطنها ، حتى يتمكن من خلال تمريناته التقشفية والتأملية ، بلوغ القوة الإعجازية السحرية ، والقدرة على سحر الناس والآلهة على حد سواء ! وبهذا يختم البرهمى حياته كإنسان كامل «سوبرمان» مؤله !

٢ - الكشاتريا

وتتكون طبقة الكشاتريا من الملوك والأمراء . أما الطوائف الدنيا منها ، فمن أعيان القرى ذوى الامتيازات الاقتصادية .

وتنسب المصادر الكلاسيكية إلى أفراد هذه الطبقة مسئولية الحماية السياسية والعسكرية للسكان . والملك أو الأمير الذى يتقاعس عن توفير الحماية لرعاياه حتى من اللصوص وقطاع الطرق ، يكون عرضة لتعويض الخسائر التى لحقت بهم . ولو أن مثل هذا الواجب الطبقى قد اندثر الآن .

وكان الملك الذى يُهزم فى موقعة من المواقع ، يعتبر مسئولاً عن ذنبه ، كما هو مسئول عن ذنوب رعاياه ! والملك الطيب العادل هو من عاشت رعيته فى رخاء ، لا تحلّ بها مجاعة أو قحط .

ولا يمكن أن يصور الأدب الهندى الدينى والعامى على حد سواء ، ملكاً من الملوك يقصر تفكيره عن مهاجمة جيرانه واستعبادهم ، سواء أكان ذلك عن طريق القوة أم الخداع والتواطؤ ! فقد حدث أنه عندما تقاعس مؤسس إمبراطورية « المهارات » - ومهارات تعنى المحارب العظيم - عن شن الحرب لفترة سنة واحدة ، اعتبر جيرانه ذلك دلالة أكيدة على أنه يرقد طريحاً على فراش الموت . وإلا لو كان سليماً لهاجمهم . . حتى بدون سبب !

فالدستور الحربى لطبقة الكشاتريا يعتبر أن الموت فى الفراش ليس مشيناً فقط ، بل إثماً يرتكب فى حق « أداء الواجب » (دارما) نحو الطبقة . وينتظر ممن وهنت قواه منهم أن يبحث عن الموت فى المعركة .

وقديماً ، تأسست إمبراطوريات واسعة من بعض القبائل المعينة ، ولكنها تفككت على أثر الفتح البريطانى للهند ، فكان أن اتخذت شكلا وسطاً بين القبائل والطبقات . كان من بينها قبيلة « المهراتا » . وموطنها الساحل الشمالى الغربى للهند . وكان المهرات يقاتلون فى نشوة بطولية فدائية . وإن كانت هذه الشجاعة والفدائية مردّها لايرجع إلى الشجاعة فحسب ، بل إلى تخديرهم بالمسكرات ، هم ومطاياهم من الفيلة المدربة على القتال .

وقد استمرت هذه الطائفة فى نشاطها العسكرى تحت الحكم الإسلامى ، إلى أن قاموا أخيراً بالثورة ضد المغول ، وأسسوا آخر حكم وطنى هندوكى فى القرن الثامن عشر .

وقد طالب هؤلاء النبلاء بمرتبة الكشاتريا ، وامتزجوا بعائلات « الراجاوات » ، وتطبعوا بالعادات الهندوكية ، حتى أنهم عزلوا فلاحيهم ، وفرضوا عليهم قيوداً طبيعية وهى الطائفة المعروفة الآن باسم «كوبى — مهراتا)

ومن النادر أن تجد شخصاً من «الراجبوت» يملك متجراً . أما إذا كان من طبقة المهراتا فلا وجود له ، فعملهم يقتصر على الفروسية والقتال .

وقديماً كان الملك يعمل بالتجارة ، على حين تنهمك الإدارة والشرطة فى مراقبة الأسعار والأسواق . كما كان الراجاوات يحتفظون باحتكارات السلع الهامة وهى : الزعفران من كشمير ، والأحجار الكريمة من جنوب الهند ، والجياد من

غربيا ، والأسلحة والمنسوجات الرفيعة من الشرق . والفيلة من جميع أنحاء الهند . وكان الملك يفرض جميع أنواع الضرائب كما يتراءى له ، ومنها ضريبة على الخليلات والحظيات اللائى كان يحتفظ بهنّ للترفيه عن التجار المتجولين !

والفكرة المجردة عن هذه الطبقة ليست واضحة تماماً . هل هى تتكون من عائلات « صغار الملاك » فقط وسلالاتهم ، أو من سلالات « الفرسان المحاربين » فقط . أو من كليهما ؟ . .

٣ – الفايشيا

تقول التعاليم الهندوكية إن طبقة الفايشيا تتألف ممن يطلق عليهم العوام . وهم على عكس الطبقات العليا تنقصهم المزايا الشعائرية والاجتماعية والاقتصادية التى يختص بها الكهنة والنبلاء . وتفرقهم عن الطبقات الدنيا ميزة الحق فى تملّك الأراضى . وتملك الأراضى حق ينكرونه تماماً على طبقات وطوائف « الشودرا » .

وتقول المصادر الهندوكية الكلاسيكية إن الفايشيا هو أولاً . . فلاّح . ومع ذلك فإن كتبهم المقدسة تسمح لهذه الطبقة باحتراف مهنة التجارة ، أو إقراض الأموال بالفائدة .

وكما سنرى فيما بعد ، أن التقدم الحضارى أسهم فى بزوغ مبدأ « أهمسا » ، أى مبدأ عدم العنف . وهو المبدأ الذى تراعيه أديان الخلاص المسالمة ، وهى « البوذية » ، وعلى الأخص « الجانية » ، والذى تلتزم به بدقة متناهية .

وبارتقاء هذا المبدأ ، هبطت رتبة الفلاح ، بل حُقِّرت . لأن الفلاح وهو يحرث الأرض ويفلحها يقضى على الحشرات والديدان . وهذه الديانات تعتبر مثل هذا العمل من أعمال العنف ، بل خطيئة دينية لا تغتفر !

أما مهنة تربية الحيوان ، فقد انحدرت قيمتها الاجتماعية إلى الدرك الأسفل ، باعتبارها مهنة تقتضى سفك الدماء . كما اعتبرت زراعة بعض المحصولات ، كالخضروات ، والدخان ، والبنجر ، وبعض المحصولات المشابهة الأخرى ، من الزراعات المحقرة النجسة ، وذلك لأسباب شعائرية مختلفة .

وكان الفلاحون يعطون الأولوية فى العهد القديم إلى تربية الحيوان فى نظام طوائفهم المهنية ، تتبعها الفلاحة . أما التجارة ، وخاصة إقراض المال ، فكان ينظر إليها فى كل مكان بعين الشك والازدراء . ولكن الحال تغيّر فيما بعد ، حيث أصبح للتجارة المقام الأولى ، لا لسبب إلاّ أن تربية الحيوان يقتضى منهم القيام ببعض الأعمال المحرمة ، وأولها عملية « الخصْى » .

وفى هذا ما يناقض ترتيب النظام الطبقى كما جاء فى كتب الفيدا المقدسة . فهى تظهر التاجر بمظهر الجوال التائه الذى ينتمى عادة إلى إحدى القبائل الغريبة ، يساوم نهاراً ، ويسرق ليلا ، ليكتنز الثروات الطائلة . وهو مكروه من الآلهة والكهنة ، لأنه شحيح لا يجزل لهم العطاء . ولذلك فكنوز التاجر « اللاإلهية » ! » هى على النقيض من ثروات النبلاء التى تمتلئ بها أيدى هؤلاء . ولذلك كان التاجر مكروهاً محسوداً ، يبغضه الجميع ، ولا يؤمن جانبه ولا تجوز صحبته . ويصورونه فى العادة بديناً متعالياً ، وخاصة إذا لم ينفق ماله على الكهنة . وفى هذه الحالة يتحتم عليه أن يجزل فى العطاء ، وهو إذا أعطى . . فهو « حبيب الآلهة » . ولكن التاجر لا يفعل ذلك مع الأسف !

ومع ذلك فكتاب « الأثارفافيدا » المقدس يحتوى على صلاة لزيادة مال التاجر . وجميع الديانات البدائية تمجد الثروة . كما أن كتاب « الريجفيدا » يسمح باقتناء الثروة ليبلغ بها الجنة ! كما تعطى الثروة للطبقة الدنيا « الشودرا »

بعض النفوذ والهيبة ، وذلك لمجرّد أن الكهنة يتقبلون منها بعض المال . . ليس إلاّ !

وما زالت صفة الفايشيا حتى وقتنا هذا ، كما كانت فى العصور الهندية الوسطى . وما زالت التجارة والثروة النقدية هى الصفة المميزة لهذه الطبقة .

وتعتبر طائفة الصيّاغ من طبقة الفايشيا فى بعض مناطق الهند مساوية تماماً لطبقة البراهمة العليا .

ولا تزال هناك قلة من بقايا عهود الإقطاع القديمة من طوائف « بارْد » ، وهى تتمثل فى المنجّمين ، والخبراء فى تاريخ تسلسل الأنساب ، وقراءة الطالع . وكانت هذه الفئة مما لايستغنى عن خدماتها وخبراتها فى بلاط النبلاء والعائلات المميزة . وهى اليوم لازمة لخدمة جبهة عريضة من الطوائف المناهضة لطبقة البراهمة . ويأتى ترتيب هذه الطوائف عادة قبل طبقة الفايشيا . كما تنحدر طوائف الأطباء بالنسبة إلى طبقة العائلات المميزة التى يخدمونها .

وهناك القليل من طوائف الصنّاع مازالت تطالب بهذه المرتبة . وهى الطوائف التى تقوم على تصنيع المواد الخام التى تشتغل بها ، ثم تعرض إنتاجها فى الأسواق بنفسها . وإن كان مجرد ظهورها فى السوق يعتبر مهانة وتحقيراً ، كثيراً ما كان يؤدى إلى انشقاق طبقى . فكانوا ينادون على أفرادها تأدّباً بلفظة « فانيك » . . أى تاجر . .

٤ — الشودرا

طبقة الشودرا هى دعامة الصناعة الهندية . وتوجد من بين الطوائف الصناعية طائفتان بارزتان : أولها ، الطائفة التى يحرم عليها مناولة الماء إلى البراهمة .

والثانية ، هي التي لا يمكن أن تستخدم للعمل ككهنة في المنازل . وتستوعب طبقة الشودرا مبدئياً ، بالإضافة إلى عناصرها المختلفة : الحرفيين القرويين ، أي الصنّاع والعمال الذين لاحق لهم في امتلاك الأرض ، ويتلقون أجراً نقديًّا أو عينيًّا ، ويعتبر عملهم حيويًّا للاقتصاد المنزلي للفلاح . ومنهم طائفة النساجين ، والباعة المتجولين ، وصناع الأواني الفخارية ، وعاصري الزيوت . وأخيراً طوائف العمال الزراعيين الكثيرة .

وتختلف مثلا مراتب طائفتي الخزّافين والفخاريين اختلافاً بيّناً ، وذلك تبعاً عما إذا كان الصانع يستخدم في مهنته القرص أو القالب ، أو عما إذا كان يستعمل الثيران . . أو هذا الحيوان المحتقر دائماً . . ألا وهو الحمار !

وتعلو هذه الطبقة المحتقرة طبقة أقلّ منها احتقاراً ، يطلق عليها طبقة « الشودرا النقية » — سات — شودرا — تحترف الصناعة والتجارة في المدن ، وتتناول جميع الطبقات الهندية بضاعتها من يدها ، مثل تجار « البان »(١) ، والروائح العطرية والزيوت ، والحلوى ، والبستانيين . ويمتاز على هؤلاء طوائف الصياغ ، وصناع « اللاكر » ، وطوائف البنائين ، والنجارين ، ومزخرف الحرير ، أو ما أشبه ذلك من صناعات المدن الترفيّة . كما أن هناك أنواعاً مختلفة من خدم المنازل يعتبرون من الطوائف النقية . وهذا شرط واجب للخدمة في دور الطبقات العليا .

ولم تكن هذه الصفات في الأصل مسلسلة ، وإنما كان للحاجة العملية دور في تنسيقها ، ورفع درجة منها فوق أخرى . فالرجل الذي يضطره عمله العناية

---

(١) (البان) لفافة من ورق شجرة معينة ، بداخلها القليل من التوابل وسائل جيري ، تدمن كافة الطبقات الهندية مضغها ، كما يمضغ اليمني القات . ولكن البان ليس مخدراً كالقات .

بشخص مخدومه ، أو لمسه ، كالخادم أو الساقى أو الحلاق ، لا يمكن أن يوضع أو ينتمى إلى طبقة نجسة .

وتحتم الكتب المقدسة على طائفة الشودرا القيام بواجب الخدمة . ويسمح للفرد منها أن يصبح تاجراً أو صانعاً مستقلاً ، إذا عجز عن إيجاد عمل له .

كما كان لاستيراد بعض المعادن من الغرب ، أثر كبير فى رفع مرتبة بعض الطوائف . ففى ولاية « ميسور » فى الجنوب مثلا ، نظام يعرف باسم « بانشفيلا » — وبانش تعنى خمسة — أى « الحرفيون ذوو الطبقات الخمس » . والترتيب الطبقى لكل منهم يكون تبعاً للمادة التى يعمل بها . وترتيب هذه المواد كما يلى : (١) الحديد (٢) الخشب (٣) النحاس والبرونز (٤) الحجر (٥) المعادن النفيسة والمجوهرات . ويدّعى مثل هؤلاء العمال أنهم ينتمون إلى طبقة عالية . بل يدّعون أحياناً أنهم من سلالة برهمية .

وعلى العموم ، فالعدد والآلات التى يعمل بها الصناع الحرفيون الهنود بسيطة للغاية . وفى أغلب الأحيان يصنّعونها بأنفسهم . كما يعبدها البعض الآخر ، وتقام لها الأعياد السنوية فى جميع أنحاء الهند — عيد « الداساهارا » — لتمجيدها والاحتفاء بها .

وتعتبر الطائفة الدنيا من هذه الطبقة مدنسة ملوثة ، وهى التى يحترف أفرادها عدداً من الحرف المزرية المحتقرة لأنها — فى نظرهم — تتضمن عملا جسمانيًّا قذراً ، مثل تنظيف الشوارع . وعلاوة على ذلك الخدمات التى تعتبرها الهندوكية أعمالا نجسة ، كالدباغة وصناعة الجلود .

* * *

ويجهل العامة عادة التفصيلات الدقيقة المتعلقة بنظام الطبقات ، باستثناء

عقيدة « سمسارا » ، أى عقيدة تناسخ الأرواح وتجسيدها ، التى توضحها لهم المصادر والمراجع الأدبية الكثيرة .

ويرجع الهبوط النسبى لكلا المستويين : المعيشى والاجتماعى للشعب الهندى إلى أسباب دينية ، منها زواج الأطفال ، ووأد الأطفال من الإناث ، وتحريم زواج الأرامل . وكل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى النقص فى المواليد ، وفى ارتفاع نسبة الوفيات بين النساء خاصة من الطبقات العليا .

كما أدى النقص فى التغذية ، وفرض الحظر على الطعام خلال نقص المحصولات ، إلى التأثير الضار على الطبقات الفقيرة من الطوائف الدنيا .

وقد جاء وقت تناقص فيه عدد الهندوك ، ويرجع ذلك إلى دخول أفواج كبيرة من الطبقات الدنيا فى الدينين : الإسلامى والمسيحى ، بهدف تحسين مركزهم الاجتماعى .

والدخول فى الديانة الهندوكية واعتناقها ، تبعاً للنظرية الهندوكية ، لا وجود له . فالهندوكى لا بد أن يولد من أبوين هندوكيين .

فالهندوكية تعتبر على هذا الأساس ديانة خاصة . بمعنى أنه لاسبيل لأى فرد أن يدخل طائفتها إلا إذا ولد هندوكياً . فالهندوكية لا تسعى إلى احتواء البشرية كالإسلام والمسيحية . فمهما كان اعتقاد الفرد أو طريقته فى الحياة ، مادام لم يولد هندوكياً ، فسوف يظل غريباً عنها ، دخيلا عليها ، يعتبرونه جلفاً ينكرون عليه المزايا الهندوكية المقدسة .

ومع ذلك فالهندوكية تعتبر قاصرة على معتنقيها كطائفة ، يمكن إقصاء الفرد منها إذا ما ارتكب ذنوباً دينية معينة .

فالهندوكى ليس بمعتقداته ، بل بمولده ، وباستمراره فى العيش فى الوسط

الهندوكى ، وبأن يلتزم بالقواعد التقليدية لطبقته . وهو إذا تغالى فى نبذ هذه التقاليد كان نصيبه الحرمان من طبقته ، وهو ما يشبه الحرمان الدينى الذى تطبقه الكنيسة الكاثوليكية على بعض رعاياها .

ولكن الغريب هنا أن هذا الحرمان يقع نتيجة لعدم التمسّك بتقاليد الطبقة التى ولد فيها ، وليس نتيجة افتقاره لـلإيمان بالدين الهندوكى !

فالطائفة البرهمية مثلا قد ألغت إعادة ارتداد بعض رعاياها إلى الطائفة ، بعد إكراههم على اعتناق الإسلام . وهى قد فعلت ذلك برغم مغفرتهم وتوبتهم و « تطهيرهم » ، وذلك بعد ما تبيّن أن هؤلاء المرتدين كانوا قد أجبروا على تناول لحم البقر ! ! . . وهى معصية لا تغتفر !

ويمكن للبرهمى المحروم من طبقته فى هذه الحالة أن يجد له ملجأً فى إحدى الطوائف النجسة من آكلى لحم البقر .

أما الرجل الذى قتل بقرة عن عمد ، فلا يمكن بأية حال قبوله كفرد هندوكى !

أما الطوائف التى يشتبه فى اشتراكها فى قتل وتسميم البقر والماشية ، وعلى الأخص طائفة دباغى الجلود ، فهى بغيضة مكروهة من كل هندوكى . علماً بأنه يصرح لها رسميًّا بالقيام بهذا العمل الحيوى .

كيفية انتشار الهندوكية

هذا وقد انتشرت الهندوكية خلال حقبة من الزمن تقدر بثمانمائة عام ، من إقليم صغير يقع شمال الهند ، إلى مساحات شاسعة تحتوى الآن ماينوف على السمائة مليون شخص .

وتنتشر الهندوكية وتتكاثر عادة بالطريقة التالية : يبدأ زعماء بعض المناطق القبلية من الروحانيين عابدى « الطبيعة » فى تقليد بعض العادات الهندوكية المعينة ، مثل الامتناع عن أكل اللحوم ، وخاصة لحم البقر ، أو الرفض البات لذبح الأبقار ، أو الامتناع عن تناول المسكرات ، أو التخلى عن العادات التى قد تحيد بهم عن الممارسات الهندوكية ، مثل الزواج من خارج العشيرة ، وتحريم زواج بناتهم إلى رجال من دون طبقتهم ، ووضع القيود على الاتصال واللمس ، والجلوس على المائدة ، وإكراه الأرامل على حياة العزوبية ، وتزويج بناتهم قبل بلوغهن سن الرشد – وقد تكون دون السادسة – وتقديم الضحايا للأسلاف ، وإعادة تعميد آلهتهم الوطنية بأسماء آلهة وآلهات هندوكية صميمة .

والإجراء الأخير هو التخلص من الكاهن القبلىّ ، واستبداله بكاهن برهمى يواظب على أداء الشعائر والطقوس ، وإقناع الحاكم القبلىّ بالشهادة على أن أصله يرجع – وإن كان قد أهمل لبعض الوقت ! – إلى دم النبلاء الفرسان – كشاتريا .

وافتراض أن أصل القبيلة أهمل لبعض الوقت يعزى إلى أن القبيلة قد هاجرت من منطقة هندوكية قديمة من عدة قرون مضت ، وأنها تسعى الآن إلى تأسيس علاقاتها مع البراهمة الهنود من جديد !

وليس من السهل أن تعثر على برهمى من الطبقات العليا يتقبل مثل هذا الرأى المزيّف . ومع كلّ ، فلا تزال توجد طوائف فرعية دنيا لطبقة البراهمة . فالبرهمى يُحتقر اجتماعيًّا إذا ماقام مثلا على خدمة طوائف أدنى من طبقته ، إذ ربما كانوا من أكلة لحم البقر ، أو من شاربى الخمور . ولكنهم كانوا ، ومازالوا ، يتقبلون مثل هذه الآراء . فهم يستعيرون أو يخترعون ، هكذا بكل بساطة ، سلالة معينة ،

أو أسطورة قد يرجع منشؤها إلى عصر القصص البطولى أو ماقبله ، ويوثّقونها . ويشهدون عليها . وكل ذلك فى سبيل السماح لهم بالمطالبة بمرتبة الراجيوت المرموقة . والراجيوت هو التعبير السائد الآن لطبقة النبلاء الفرسان – كشاتريا .

وهناك ظاهرة اجتماعية وجدت فى المجتمع الهندوكى ، ولا تزال باقية حتى الآن ، يقال لها « الشعوب النزلاء » . . أو الضيوف .

وهؤلاء يكونون عادة من بين الغجر الرحّل ، أو أفراد القبائل المتجولين الذين يحتكرون التجارة ؛ أو بعض المهن المحلية ، فى منطقة معينة ، أو الخدم ، أو الزراع الموسميين فى أوقات الحصاد ، أو بعض الشعوب المدحورة التى اعتبرها الغزاة « نزلاء » ، مع أنها لاتزال تقيم فى موطنها . ثم يشرعون فى استيعابها بتحويلها وإدخالها فى أحط الطبقات وأدناها .

ولا تخلو مدينة أو قرية من هؤلاء العمال والفلاحين النزلاء المنبوذين ، كعمال دباغة الجلود مثلا . فمع التسليم بأهمية هذه الصناعة وحيويتها ، ومثلها الكثير ، إلا أنه يكفى مجرد ظهور فرد من أفراد هذه الجماعة داخل حجرة حتى يفسد هواؤها ، ويلوث طعامها . وفى هذه الحالة يجب إلقاء ما فى المنزل من طعام إلى الخارج ، تفادياً للنجاسة والدنس والأذى !

وتبعاً لتعاليم طبقة البراهمة ، فإن عدوى الرجل من الطبقات النجسة قد تذهب بهم إلى حد الإضعاف من رجولتهم ، وتدمير قوتهم الجنسية !

انقسام الطبقات

ويرجع أسباب انقسام الطبقات للانشقاق والخروج الدينى على تعاليم الطائفة إلى عدة أسباب . منها مبدأ الرفض الكلى أو الجزئى للمعاشرة أو الزواج

من غير أعضاء الطائفة . فربّوا الماشية يكونون عرضة لفقدهم الطبقة بسبب بداوتهم وتنقلاتهم المستمرة .

فالجزء من الأرض الهندية الذى تأسس عليه نظام الطبقة ، هو الذى يعتبر أرضاً مقدسة . والهندوكية المتطرفة المتزمتة ترتاب فى تبديل محال الإقامة ، حتى داخل الهند نفسها ، لأنها تنتقل بالمهاجر إلى بيئة ذات شعائر مختلفة . وعلى ذلك فالهجرة الداخلية فى الهند حتى وقتنا الحاضر ، هى أقل مما كان ينتظر منها بالنسبة إلى التطور الحالى الذى طرأ على ظروفها الاقتصادية .

إن أكثر من تسعة أعشار السكان الهنود يعيشون فى مسقط رأسهم . وتؤدى الإقامة الدائمة لأفراد طائفة معينة فى غير مكان إقامتها الأصلى ، إلى تجزئتها إلى طبقات ثانوية جديدة ، لأن السكان المقيمين يرفضون عادة اعتبار سلالة المهاجرين كنظراء لهم .

كما أن هناك عدة أسباب أخرى لانشقاق الطبقة وتجزئتها إلى طوائف مختلفة . منها تطلّع أعضاء الطائفة إلى مرتبة أعلى أو نبذهم لبعض الشعائر والطقوس واعتناقهم لشعائر جديدة . أو التغييرات المهنية لأفراد الطائفة . أو بالنسبة لهذا السبب الأخير ، وتبعاً لمراعاة التقاليد الصارمة ، فإن مجرد التغيير فى الأسلوب الفنى للعمل ، يعتبر سبباً كافياً لتفكك الطائفة .

وقد تنشأ طوائف جديدة نتيجة للزواج غير الشرعى ، أو عن طريق اتخاذ المخطيات بين الطوائف . وكما هو معروف ، فالنظرية الهندوكية الكلاسيكية ، تعبّر عن الطوائف غير النقية بأنها طوائف « خليطة » .

الديانة الهندوكية

لا شك أن ما من أحد يسهل عليه أن يستوعب تماماً أية ديانة من الديانات إلا إذا كان من معتنقيها . أما إذا كانت تلك الديانة هى الهندوكية بالذات ، بتعقيداتها ، والتباساتها ، ومظاهرها المختلفة ، وتبايناتها المتعددة ، وأساطيرها الزاخرة بالخرافات والرموز ، فهنا يتعـذر على غير الهندوكى تفهمها وتقبلها ، أو الغوص إلى أعماقها وأغوارها وجذورها .

وإذا كان يسهل على الباحث دراسة الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لشعب من الشعوب دون التطرّق إلى المسائل الدينية ، فالأمر يختلف عن ذلك بالنسبة إلى الهند . حيث الاعتبارات العقائدية هناك مازالت تؤثر على الحياة فيها تأثيراً جذريًا .

عبادة «كريشنا» راعى البقر المقدس



فالديانة الهندوكية ، وهى ديانة الأغلبية الساحقة للسكان ، تعتبر عاملا جوهريًّا لا يمكن تجاهله فى مثل هذه الدراسة .

ويجب أولا أن يؤخذ فى الاعتبار أن الديانة الهندوكية هى أبعد ما يكون عن إدراكنا لمفهوم الدين . بل هى على العكس تقلب الموازين الدينية بالنسبة للمؤمن . فهى لا تحتوى على أية خصائص لتكوين جوهر الدين كما نعرفه ونفهمه .

وإذا سألت هندوكيًّا فيمن وبماذا يعتقد ، لأجابك بأن دينه يبيح أنواعاً متعددة من المعتقدات . وأن دينه يعترف بأن الإيمان يأخذ مظاهر متعددة ، تبعاً للوسط ، ومستوى الثقافة ، والميول الشخصية .

وكما يعتقد بعض الهندوك ، أن الله حاضر فى كل مكان . ولكنه كائن لا يمكن وصفه لأنه – وهو القدير على كل شيء – يستطيع أن يتخذ لنفسه الهيئة التى يختارها . وعند البعض الآخر منهم ممن يصعب عليه تصور مثل هذا الإله ، فإنه يتخذ واحداً أو أكثر من الآلهة الواضحة المميزة ، ذات السجايا والخصال البشرية ، والتى يمكن اعتبارها كمظهر للإله الكامل المطلق .

فالفلاح الأمّى يزاول الخرافات فى سبيل استرضاء الشياطين والأرواح والآلهة المحلية . وعلى مرّ الأجيال تطورّ هذا التصوير إلى مختلف الطرق المتشعبة . ولازالت كل من هذه الصور باقية حتى الآن ، محتفظة بقوتها ونشاطها ، بالرغم مما يرى فيها العالم غير الهندوكى من تنافر وتناقض .

وإذا كنا فى سبيل تعريف الهندوكية كدين ، فلا يسعنا بادئ ذى بدء إلا أن نقرّ بأن هذا الدين إنما يحتوى على الكثير من المعتقدات المتنوعة . ولكنها فى الوقت نفسه موحّدة فى إطار من روح التسامح الجماعى الذى يؤمن به الهندوك ،

وهو أن كل السبل مفتوحة ، ما دامت تهدى إلى طريق الله .

وليس للدين الهندوكى أئمة ، كالخليفة عند المسلمين ، أو البابا عند المسيحيين . كما أن لدى الهندوك مجموعة من الكتب التى يعتبرونها عادة فى حكم المقدسة ، يختار منها المؤمن ما شاء . وتعاليمها تبدو متناقضة فى كثير من الأحيان .

فالدين الهندوكى لا يملك كتاباً مقدساً منزّلا كالقرآن أو الإنجيل .

الفوارق فى الهندوكية

المقارنات النوعية هى أهم السمات الهامة للديانة الهندوكية . فهى تبرز الفوارق بين « الأسمى » و « الأدنى » فى ميادين مختلفة : كالمعتقدات ، والطبقات ، والطعام ، والمهنة ، وعادات الزواج ، ووجهات النظر تجاه المرأة ، وغير ذلك الكثير من مظاهر الحياة . وذلك بمعنى أنها تعتبر النباتى أسمى من آكل اللحوم . والزواج المبكر أسمى من الزواج المتأخر . والموظف أسمى من العامل اليدوى . . وهكذا . .

ولكن إذا كان التسامح الدينى كبيراً فى الهندوكية ، إلا أن التقاليد الهندوكية لا تقرّ هذا التسامح فى المجتمع الهندوكى . وأتباع الأشكال السامية ، ينظرون إلى أولئك الذين يتبعون الأشكال الدنيا منها ، كما ينظر الأب إلى ابنه المتخلف عقليًّا !

ويشكّل هذا المبدأ — مبدأ عدم المساواة — أكبر عقبة فى سبيل نشر مبدأ المساواة . بين الناس أمام الله ، وهو ما ينادى به الدين الإسلامى السمح .

الهندوكية البدائية

والهندوكية البدائية – وهى التى يطلق عليها عادة اسم « البرهمية » ، تمييزاً لها عن الهندوكيةاللاحقة– مشتقة من ديانة الآريين البيض الذين غزوا الهند حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . ثم ضمت بعد ذلك تدريجيًّا عناصر مختلفة من الديانة التى كانت سائدة فى وادى الإندوس ، مثل عبادة « اللنجام » – عضو التناسل – أى عبادة الإخصاب ، وعبادة الأشجار المقدسة .

والنصوص المقدسة الأولى للديانة البرهمية هى « الفيدا » ، وهى عبارة عن ترانيم وأغانى الآريين الدينية . وهى باللغة السنسكريتية ، صيغت على الأرجح فى القرن التاسع قبل الميلاد . ولكنها لم تدون إلا بعد مرور ألفى عام على ذلك .

وكانت البرهمية مقصورة على الطبقة الأرستقراطية حتى القرن الرابع ق . م ، وهو العصر الذى نهض فيه البوذيون لمقاومة امتيازات الطبقة السامية .

وتتضمن البرهمية البدائية تضحيات غالية ، وشعائر معقدة ، يترأسها كهنة من البراهمة .

وظهرت بعد ذلك ديانة هندوكية جديدة خلال القرنين الرابع والخامس الميلادى ، أعطت الأفضلية لنصوص الفيدا ، ولكنها كانت أكثر تسامحاً من البرهمية القديمة . فقد أبقت على جانب كبير من الديانات الشعبية ، كما أجازت القيام بالشعائر المحلية القديمة المتوارثة .

وحتى القرن التاسع عشر كانت نصوص الفيدا والكتابات الدينية اللاحقة ، ملكاً خاصًّا مقصوراً على البراهمة ، الذين كانوا يعارضون تعليم اللغة السنسكريتية والنصوص الدينية للطبقات الدنيا .

الديانة الريفية

وتختلف الديانة الهندوكية الريفية - ويعتنقها أكثر من ٨٥ ٪ من الهندوك - اختلافاً بيِّناً عن الديانة الكلاسيكية السنسكريتية .

فالفلاحون الهندوك يعلمون أن كل فرد من أفراد الطبقات المثقفة والمتعلمة - إنما يوقِّر على انفراد عدداً كبيراً من الآلهة - وذلك فى الوقت الذى يتركز إيمانهم هم فى مجموعة محدودة من الآلهة المحلية .

وهم فى الحقيقة لا يعبدون أو يبجلون هذه الآلهة - بل يهابونها ويخشونها . فجميع الشعائر ، والاحتفالات ، وممارسة الخرافات التى يكرسونها لها ، إنما يقصد بها تجنب غضبها ، واكتفاء شرها .

ولعل من المستحيل إعطاء فكرة كاملة عن تنوع صغار الآلهة المحلية المنتشرة فى طول البلاد وعرضها . فعلى سبيل المثال : تقام فى جزء من جنوب الهند الطقوس المحلية لحارس خفىّ غير منظور ، يطلقون عليه اسم « إينار » ، وهو ينطلق على جواده فى مهمة لإبعاد الشر عن المكان . فتجد قطعاً صغيرة من الحجارة ، وتماثيل لجياد صنعت من الصلصال ، ملقاة على طول الطرق - كى يستبدل بها الإله إينار مطيته من آنٍ إلى آخر ، كلما أصابها الكلل والإجهاد ! .

كما يوجد اعتقاد راسخ فى كل أنحاء شبه القارة الهندية ، فى آلهة بدائية للأنوثة ، يتبدل اسمها ، وتختلف طقوسها من مكان لآخر . ولكنهم يجمعون على وجوب تقديم الذبائح لها . وموائد ذبائحها أقرب إلى قطع صغيرة من الحجارة منها إلى المذابح .

ويعتقد الفلاحون أن لهذه الآلهة القدرة على تقمص أجسادهم فى صورة

روح شريرة ، فإذا دخلتها ركبهم الشيطان .

ويعتقد الفلاحون فى ولاية ميسور ، أن الواحد منهم لا يصاب بالجدرى إلا إذا تعرض لغضب الآلهة «مارياما» إلهة الجدرى !

ولعل للفلاحين الهندوك عذرهم فى معتقداتهم بوجود الأرواح الشريرة . فهم يعيشون فى البؤس ، تبتليهم النوائب والمجاعات ، والفيضانات والحروب والأوبئة . وإن كانت بعض معتقداتهم المتأصلة فى هذه العبادات تتعارض تماماً مع محاربة هذه الآفات والملمات ، وتحسين أحوالهم .

وتجابه الحكومة الهندية صعوبات وعوائق فى إقناع الفلاحين ، دون جدوى ، بأن مثل هذه الآلهة لن تصبَّ عليهم جام غضبها إن هم تخلّوا عن مزاولة مثل هذه التقاليد التى تقف حجر عثرة فى سبيل تقدم البلاد .

زواج الآلهة

وكلما ارتقت العبادة الهندوكية ، خاطبت عدة آلهة ممتازة من الآلهة السامية ، ذات المظاهر المختلفة . فنجد فى المعابد الكبرى أن أساطير تلك الآلهة تظهر فى صورة تماثيل دقيقة التفصيل ، تمثل الشخصيات المختلفة فى صور آدمية .

وتُعامل هذه الدمى كما لو كانت مخلوقات حية ، يتولى الكهنة إلباسها ، وغسلها ، وإطعامها ! بل يذهبون إلى أبعد من ذلك ، فيقومون على تزويجها فيما بينها ! ! .

وتُحمل هذه الآلهة فى الاحتفالات الكبرى على محفات فى مواكب تخترق الشوارع ، وتحاط بالفخفخة والأبهة الجديرة بها . ولمثل هذه الشعائر أثر روحى عميق فى نفوس المؤمنين من الهندوك .

وبالرغم من وجود كل هذه المعابد الضخمة ، فإن الشعائر الهندوكية لا تقام جماعة . بل هى عملية فردية شخصية بحتة ، يقوم بها المتعبد حيثما وحينما يشاء ، وكيما يحلو له .

فى كل مسكن هندوكى يخصص ركن للعبادة ، يطلق عليه «پوچا» ، توضع فيه التماثيل الصغيرة التى تمثل الآلهة ، ومواقد للبخور ، تعلوها الصور المقدسة التى يحيطونها بعقود الأزهار .

ولا يقتصر وجود هذه الهياكل على المساكن ، بل تقام أيضاً فى أماكن العمل .

ولا يعتبر الصانع أو الفنان الهندى الذى يقوم ببناء هذه المعابد ، أو نحت هذه التماثيل ، أن صناعته أو فنه ، هو نتيجة لمهارة أو خبرة متوارثة من الأجيال السابقة ، وإنما إلى استيعاب وإذراك إلهى ملهم !

ولذلك فالصنّاع والفنانون فى كثير من الأقاليم يكرسون أعياداً كبيرة لعبادة عددهم وآلاتهم .

الرقص والشعائر الدينية (١)

وحتى الرقص لا يخلو من الشعائر المقدسة . فالراقصة المحترفة تؤدى بعض رقصاتها فى بدء ظهورها على المسرح ، كرمز لتدشين الفن الذى تحترفه . ذلك الفن الذى يتصل بتوقيعه ومغزاه اتصالا وثيقاً بالدين . فتمر الراقصة بكفيها على

(١) هناك أربع مدارس للرقص الكلاسيكى فى الهند وهى :

١ – بهارات ناتيام ؛ وهى رقصة جنوب الهند ، وترقصها راقصات المعابد (ديفاداس) منذ قرون مضت

نار وقودها من خشب الصندل النفيس زكيّ الرائحة ، ثم تضم كفيها ، وتمسح بهما جبينها ، وهى خاشعة أمام أستاذها الذى يناولها الخلاخيل والأجراس الصغيرة التى ستتحلى بها فى رسغيها وكعبيها .

الآلهة الرئيسية

ومنذ العصر الذى بدأت تشعر فيه البوذية بالنفوذ الهندوكى ، كان المعبودان الرئيسيان للديانة الهندوكية هما : «شيفا» ، الحامي والخالق والمدمر فى الوقت نفسه . و «فيشنو» ، الذى كان يتخذ مختلف الأشكال والصور . فكان يظهر على الأرض كلما دعت الحاجة إلى إنقاذ البشرية من الهلاك .

وفى إحدى المرات تجسّد فيشنو فى صورة «كريشنا» ، راعى البقر المقدس . وتروى الأساطير الشعبية العجيب من مآثره الرائعة ، ومعجزاته الخارقة . وكم ألهمت قصة حبّه للفلاحة الجميلة «رادا» الفنانين والموسيقيين والشعراء .

ويرمز حب كريشنا لرادا عند الهندوكى إلى الامتزاج الصوفى بين النفس الآدمية والروح الأبدية .

الإله «شيفا» فى صورة
«ناتاراج» أى الراقص الأول

= ٢- كاتاكالى : وأصلها من ولاية كيرالا ، تنقل المشاهد إلى عالم الآلهة والشياطين بملابسها وحركاتها الحربية .

٣- مانيبورى : من الشمال الشرقى وحركاتها رقيقة .

٤- كاتاك : وظهرت تحت حكم المغول وهى أساساً رقصة توقيعية منغمة .



و « راما » هو تجسيد آخر لفيشنو . وهو أحد موضوعات البطولات الشعبية فى الأشعار الهندوكية . التى من بينها ملحمة « الرامايانا » الشهيرة التى تروى قصة الإله مع زوجته « سيتا » ، عندما خطفها الشيطان « رافانا » إلى جزيرة سرنديب (سريلانكا الآن) ، وبعد محاولات صعبة استردها بمساعدة القرد « هانومان » . وظلت سيتا على إخلاصها لفيشنو طول مدة فراقهما ، كما ظلت على عهدها بحب الهند .

وتقام فى جميع أنحاء الهند احتفالات « الدوسيرا » التى تستمر لمدة عشرة أيام متوالية ، إحياء لذكرى انتصار راما على الشيطان رافانا ، أى الانتصار الأبدى للخير على الشر .

وتعتبر تجسيدات الإله فيشنو الكثيرة آلهة طيبة وديعة ، تهرع إلى الناس لمواساتهم فى المصائب والملمات . بخلاف « شيفا » المتباعد الذى يبعث الرعب والهلع فى النفوس . وكثيراً ما يتمثل وهو يرقص وسط دائرة من اللهب .

وتضم معابد شيفا تماثيل لعضو التناسل « اللنجام » . وترجع عبادته إلى عصور ما قبل الغزو الآرى . وكانت أساساً عبادة للدين البدائى لوادى الإندوس .

والكثير من الهندوك المثقفين فى بعض مناطق الهند ، يتعبدون للإلهة « كالى » التى تتطلب منهم تضحيات دموية ، وعلى الأخص من المعيز ! . وكالى إلهة مطاعة ، صورتها تبث الرعب فى القلوب بأنيابها الطويلة المدببة ، وشعرها المنفوش ، وعقدها المنظوم من الجماجم البشرية .

فلسفة الديانة الهندوكية

الهندوكية السامية

وجميع هذه الآلهة الفردية - فى نظر الفلاسفة الهندوك - ما هى إلا صورة توضح وترمز إلى المعبود الأعلى المجهول الذى لا يمكن وصفه ، والذى هو أساس جميع الأشياء . وهذا الجوهر الخالد يطلقون عليه اسم « براهمان » .

ويجب هنا عدم الخلط بينه وبين « البراهمة » - أى الكهنة - أو « براهما » أحد آلهة الهندوك المتعددة .

والبرهمان الأعلى مجهول ، فطرىّ ، مطلق . وهو روح جميع المخلوقات الحية ، من آدميين وحيوانات ، كلهم واحد فيه . . وإنه من الجهل أن نعتقد فى حقيقة مظاهر الأشياء المتنوعة التى يتكون منها عالمنا الخارجى هذا . إنما الحقيقة هى فى « وحدانية البرهمان » ، وعدم قابليته للتجزئة . وأن الهدف الحقيقى من الحياة الإنسانية هو إدراك هذه الوحدانية والواجب الأساسى للإنسان هو أن يكيّف إدراكه للعالم بطريقة تمكنه من الاندماج فى البرهمان .

وهذا الإدراك ليس مفهوماً تماماً من البسطاء الهندوك . كما أن بعض طبقات الفلاسفة لا تعترف به . فتصّور البرهمان فى كل مكان وزمان مازال بعيداً عن التسليم به جدلا . ويصعب على الكثير منهم استيعاب هذا التصور وفهمه أو هضمه . وهم يقولون إذا كان كل ما هو كائن ما هو إلا جزء لا يتجزأ من البرهمان ، فما هى المادة إذن ؟ وما هى التربة التى نطؤها بأقدامنا ؟ أو الشجرة التى

نتحسسها بأيدينا ؟ بل من هو هذا الإنسان الذى يسعى وراء تحقيق رغباته وأمانيه ؟

يقول بعض الفلاسفة الهندوك أنه ليس للأشياء والكائنات إلا «وجود نسبى» ، وما هى إلا «انبثاق» من البرهمان . وهذا يعنى أنه لا وجود إلا للبرهمان . وما تبقى بعد ذلك فهو وهم ! وأن هذا الوهم ينتمى إلى ال «مايا» . «ومايا» اصطلاح سنسكريتى يعنى «خداع النظر» !

بينما يوافق آخرون على حقيقة المادة ، لأنه - كما يقولون - يمكن للبرهمان فى بعض الحالات أن يتواجد داخل الأشياء !

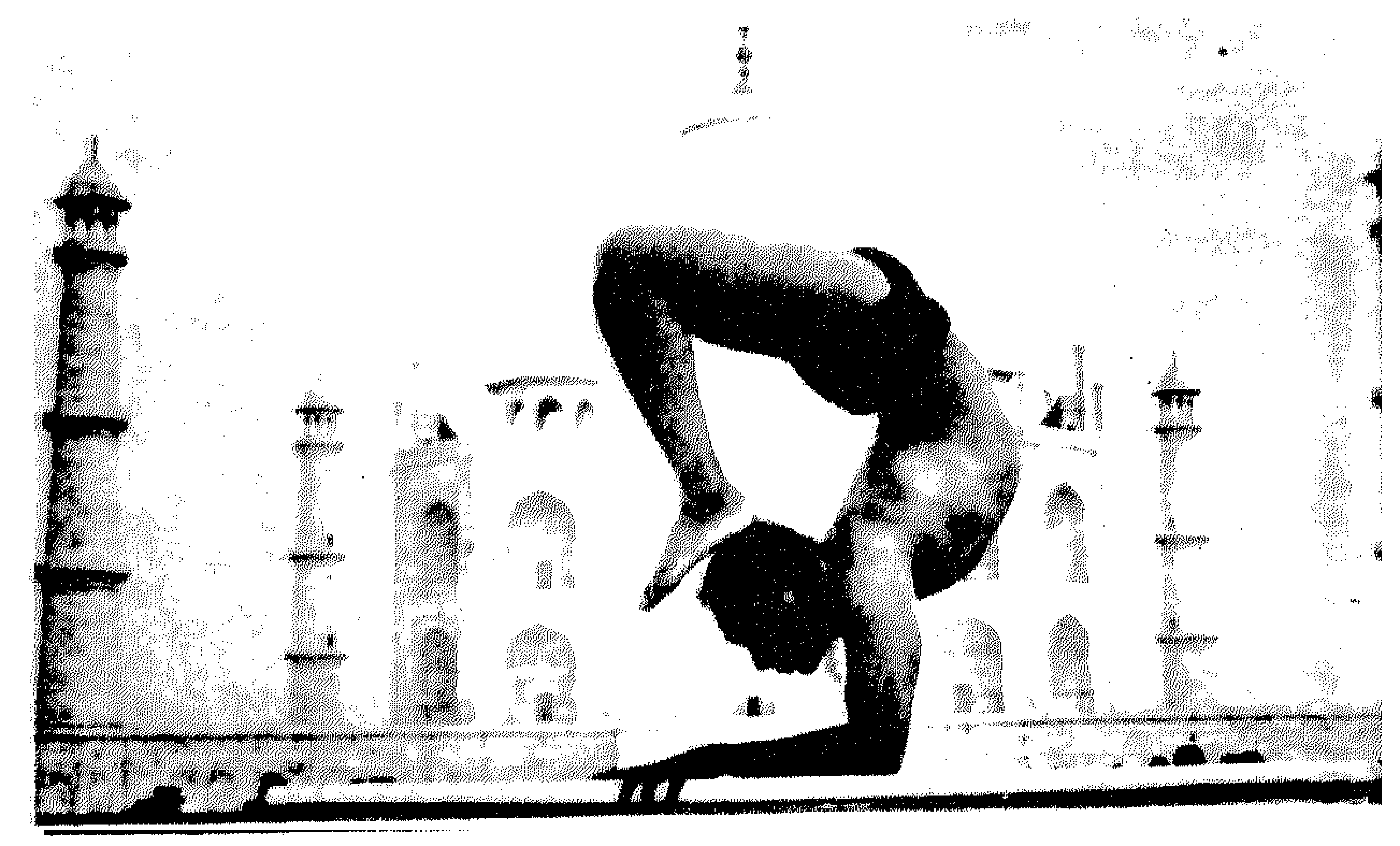
بمعنى أن المادة الخام عندما تنعدم فى نهاية الفضاء الكونى ، وكذلك الروح الخالصة ، فإنهما يمترجان ويرتقيان تدريجيًّا من حالة الجمود إلى العضوية ، ومن الحياة السلبية إلى الإيجابية ، ومنها إلى حياة التعقل ، ومن التعقل إلى الروح المثالية . . ومنها إلى الإله السامى !

فالهدف من الحياة إذن يجب أن يكون تنمية القيم الروحية ، وتحرير النفس من قيود المادة ، وتحقيق وحدة الروح مع البرهمان .

ويتحتم على الإنسان للوصول إلى هذا الهدف أن يختار إلهاً ، وهو الإله الذى يمكنه أن يتفهمه ، وأن يخضع نفسه لنظام صارم اسمه اليوجا .

اليوجا

وتعنى اليوجا الكد والجهد ، والتقشف والزهد . والأساليب الفنية المتبعة فى اليوجا تهدف إلى تحقيق حالات سحرية ، وقوى إعجازية ، مثل القدرة على تعطيل الحاذبة والطواف حول الأشياء . أو اكتساب القوة على تخيل الأحداث



اليوجا .. والتاج محل .. رمز الهند

عن طريق قوة الإرادة السحرية لليوجي . أو رؤية الأشياء غير المنظورة ، وقراءة أفكار الآخرين .

واليوجي هو أكثر من متقشف ، وأكثر من « عارف » .. وتمجد المبادئ الهندوكية الأساليب الفنية التي تتبعها اليوجا لتنظيم التنفس والمدارك الحسية .. ونجد في وصاياها التي تنص على اجتناب الشهوات والغضب والطمع – وهي البوابات الثلاث المؤدية إلى الجحيم – ما يتمشى مع مبدأ عدم الاكتراث بالحياة الدنيوية .

ولليوجا ثلاثة أساليب مختلفة :

١ – كارما – أي اتباع طريق « الأعمال الصالحة » ..

٢ – جنانا–أى اتباع طريق «المعرفة» وأساليبها : التأمل ومزاولة التقشف .

٣ – باكتى–أى اتباع طريق «الحب الإلهى» .

وتحقيق «الأعمال الصالحة» يكون عن طريق إقامة الشعائر والاحتفالات التقليدية ، وليس عن طريق القيام بأعمال البّر والإحسان ، انتظارًا لثواب المستقبل ! .

وبلوغ «المعرفة» لا يكون عن طريق الجدال والتعقل والتفكير ، بل عن طريق إدراك الحقيقة بمعناها المطلق ، الذى يستحيل الوصول إليه إلا بمحو الرغبات ، وكبت الشهوات .

وهنالك طرق مختلفة للوصول إلى هذا الهدف . من بينها مزاولة «اليوجا» عن طريق استعمال أوضاع معينة للجسم ، والتحكم فى التنفس ، وإبطاء الأنشطة الحسّية ، وتركيز الانتباه والتأمل . وذلك قبل الوصول إلى حالة الغيبوبة ، ونشوة البلادة الروحية ، المعروفة عن «الرجال القديسين» فى جميع الطبقات الهندوكية . كما أن هناك نساء قديسات أيضاً !

أما «الحب الإلهى» فيمكن التعبير عنه بعبادة إله معين ، يشترط فيه أن يكون قد احتل مكانة الألوهية فى القرون الأخيرة على الأكثر .

وهذا النظام الأخير يتبعه حاليًّا غالبية الهندوك .

ولا يعترف البراهمة باليوجيين وفلسفتهم ، ولذلك فهم يكوّنون طبقة قائمة بذاتها .

* * *

التجسيد وتناسخ الأرواح (سمسارا)

والديانة الهندوكية تسمح بوجود عدة صور مختلفة للآلهة . إلا أن هناك بعض المعتقدات المشاعة بين كل الهندوك تقريباً . أهمها عقيدة التجسيد وتناسخ الأرواح «سمسارا» – ولفظة سمسارا تعني «عجلة الحياة» – أي استمرار الإنسان في الحياة عبر سلسلة من الحياة المتكررة ، سواء على الأرض ، أم في أي مكان آخر ، وفي هيئة أي كائن حي ، رجلا كان أو حيواناً أو نباتاً ! . .

وترتبط هذه العقيدة ارتباطاً وثيقاً مع شريعة «كارما» – الأعمال الصالحة ، التي تقول أن خُلُق الإنسان ، ومركزه الاجتماعي ، وثروته ، إنما تحددها هذه الشريعة . وهي تنص على أن المرء يحمل عبء أخطائه ، كما يجازى على أعماله الصالحة إلى الأبد . وأن الروح تمر من تجسيد إلى تجسيد حتى تصل به في النهاية إلى «الموكشا» – أي الخلاص . وأن من يحيا طبقاً للقواعد ، طاهراً ، سيد نفسه ، منعزلا ، صادقاً ، ومستوفياً لواجبات طبقته ، فسوف يرتفع في كل تجسيد إلى درجة أعلى في الطهارة ، وفي ترتيب طبقته !

وهكذا إلى أن يصل إلى مرحلة تؤهله لأن يدرك الحقيقة ، حيث يتلقى روحه الوحي بشخصية البرهمان . وهنا فقط تتوقف روحه عن التجسيد .

ولما كان الفكر الهندوكي يعتقد في الخلود ، فإن المؤمنين منهم يبتغون إدراك الخلاص النهائي بأسرع ما يستطيعون ، وذلك لأن اليوم الواحد من حياة «براهما» – الخالق – وهو غير البرهمان ، يعادل ٤٣٢٠ مليار عام آدمي ! . . فإذا لم تتح للروح أن تحرر نفسها ، كان عليها أن تتحمل ثقل تراكم قَدرها طيلة هذه المليارات من السنين . وهو حمل لا يعلم وطأته إلا الله سبحانه وتعالى .

نظرية الخلاص

وأمل الإنسان الذى ينشده فى الحياة السماوية الأبدية - كما تنادى به الديانات السماوية - لا وجود له فى نظرية الخلاص الهندوكية .

فالهندوك ينظرون إلى الثواب والعقاب على أعمال الشخص فى هذه الدنيا الفانية ، على أنه هراء سخيف يناقض كل المكافآت الأخلاقية العادلة . فهم يقولون إن الفرد يمكث فى الجنة لفترة محدودة ، مقابل حسنات معدودة . وعلاوة على ذلك ، فإن الآلهة الفيدية الهندوكية ليست أكثر صلاحاً وتقوى من الرجال ، وإن كانت فقط تفوقهم قوة وجبروتاً . وعلى ذلك فليست الجنة هى الهدف الرئيسى الذى يتطلع إليه البراهمة .

فالخلاص النهائى تبعاً للنظرية الهندوكية لا يعنى فقط الانسحاب من الحياة اليومية ، بل من العالم أجمع ، بما فى ذلك الجنة ، وعالم الآلهة .

ولما كانت الإقامة فى الجنة هى لفترة محدودة ، فإن فرائص الهندوكى ترتعد هلعاً من حلول اللحظة التى سوف يستنفد فيها فائض حسناته ، لأنه لا مفر له عندئذ من ولادة جديدة على الأرض . لأن الخلاص النهائى - طبقاً لنظريتهم الكلاسيكية - هو الخلاص النهائى المطلق من العالم . فالعالم ما هو إلا « عجلة » تدور معها الولادة والوفاة حتى أبد الآبدين . أما الحقيقة الدائمة فهى الروح .

والسؤال الأول والأخير فى الفلسفة الهندوكية هو : كيف إذن للروح أن تتخلص من شرك هذه العجلة ؟ والإجابة على هذا السؤال هو أنه يستحيل على الروح تحقيق ذلك إلا بعد استنفادها لعقيدتى الكارما - الأعمال الصالحة - والسمسارا ، تناسخ الأرواح .

الدارما ، والموكشا

وهناك تصور هندوكي آخر يقال له « دارما » ، يقول إن على كل إنسان واجبات خاصة يلتزم بها وعليه أن يؤديها ، وذلك تبعاً لمركزه فى الحياة ، وخاصة بالنسبة إلى طبقته .

كما يجوز أيضاً أن تتوقف « الدارما » على السنّ . فالهندوكية تقسمّ الحياة إلى أربعة أعمار ، لكل واحد منها واجباته التى تلائمه . فالعمر الأول للإنسان هو « القاصر » ، والثانى هو « رب العائلة » ، والثالث هو « المتعبد » ، والرابع والأخير هو « الناسك » (سانياسى) (١)

فعلى الرجل خلال العمر الثانى من حياته أن يتم واجباته الزوجية . وفى الثالث أن ينبذ ارتباطه وصلته مع عائلته والمجتمع . وأن يقطعها تماماً فى عمره الرابع ، ليكرس حياته للعزلة والصلاة والتأمل .

أما « الموكشا » – الخلاص النهائى – فما هو إلا أسمى هدف من أربعة أهداف يسعى المرء إلى تحقيقها . أما الثلاثة الأخرى فهى :

١ – « كاما » : أى إرضاء الرغبات والغرائز الطبيعية .

---

(١) الناسك لا عمل له . أما الواجبات التى عليه أن يؤديها فهى اتباعه بدقة للقيود المفروضة على النظام . مثل الكف عن التجول فى موسم الأمطار . أو اتباع التعليمات الخاصة بحلاقة الشعر وبعض المظاهر الأخرى . والزهد والتقشف . والامتناع عن الطعام الحلو ، والاقتصار على تناول الفاكهة بعد سقوطها من على الشجر . والتجرد التام من الملكية . وتحريم تخزين الأشياء . والمعيشة على التسول . والاقتصار على قبول بقايا الطعام . والمبيت ليلة واحدة فقط فى كل قرية ، أو عدم المبيت كلية فيها . والاكتفاء بالضرورة القصوى من الملبس .

٢ - «آرتا» : · أى الرفاهية المادية عن طريق العمل .

٣ - دارما : أى أداء الواجب .

وكمبدأ ، هناك دارما «مهنيّة» ، حتى للمومسات واللصوص . وهم فى ذلك يتساوون مع البراهمة والملوك . فالمومس أو اللص ، إذا ما أدى كلاهما واجبه نحو عمله بإخلاص ، فسوف يثاب على عمله ! ! . .

الكتب الهندوكية المقدسة

للهندوك أربعة من كتب الأناشيد والتراتيل والصلوات يقال لها (فيدا) . وكلمة فيدا تعنى باللغة السنسكريتية « المعرفة » أهمها هو كتاب « ريج فيدا » ويضم الأناشيد والمديح .

و« ساما فيدا » للأغانى والأنغام . و« ياجور فيدا » للصلوات ، و« أتار فافيدا » ، للنظم والقوانين .

وكانت هذه الكتب فى البداية تمجد الكثير من الآلهة ، ولم تكن تلك الآلهة إلا تشخيصاً لمظاهر الطبيعة وهى :

« فارونا » : السماء ، و« سوريا » : الشمس ، و« أجنى » : النار ، و« إندرا » : الرعد والمطر .

وقد اشتملت فقرات لاحقة من الفيدا على تطور يتجه نحو التوحيد ،

وارتبطت بوصف الحقيقة الأولى التى كانت قائمة قبل ظهور هذه الآلهة ، وفيها تحرر الفكر الهندوكى تجاه الكون ، والمبادئ التى تحكمه ، والنهج الأساسى الذى تطبق بموجبه قوانين ونظم العالم .

ومهما كان ، فإن الشعائر الرسمية للفيدا بكل تراتيلها وقواعدها ، إنما تستند على التضحية والصلاة ، وليست على الأساليب الرمزية للعربدة واللهو الخليع ، مثل الرقصات المثيرة ، والجنس والمسكرات ، وهى الممارسات التى حرصت على التخلص منها بكل عناية .

والجماع فى الحقول كوسيلة لضمان خصب التربة ، وعبادة « اللنجام » – عضو التناسل – هما من الشعائر والعبادات القديمة فى الهند التى تغاضت عنها كتب « الريج فيدا » . كما أنها تتجاهل كل ما يتعلق بتجسيد الآلهة والشياطين الواردة فى التمثيليات الشعائرية . وحتى شعراء العصور الفيدية القديمة ، وكذلك الكهنة البراهمة ، ينظرون إليها على أنها ممارسات شائعة مبتذلة .

وللإله « رودرا » ، إله الإخصاب ، الذى جاء ذكره فى كتب الفيدا ، شخصية شيطان . وتقام له الشعائر والطقوس التى تتخللها العربدة والتهتك الجنسى . وقد عُبد هذا الإله فيما بعد تحت اسم « شيفا » ، كإله لعبادة اللنجام ، وهو واحد من الآلهة الثلاثة الهندوكية الكبار . فى حين يظهر الإله فيشنو فى الفيدا كصورة ثانوية ، وكمنافس « لشيفا » فى الثالوث الهندوكى المقدس . وقد كُرّم فى التمثيليات الصامتة كإلة الإخصاب السماوى ، وكراع للتمثيليات الراقصة ، والممارسات الإباحية لعبادة الإله « كريشنا » .

وقد تشبث البراهمة بمبدأ أن التعاليم المقدسة الواردة فى الفيدا ، يجب أن تنقل شفاهة . فالأدب الهندوكى الدينى – والبوذى كذلك – صيغ بطريقة استعملت

فيها المقاطع الشعرية ليسهل استظهارها .

وهناك أشعار لاحقة للفيدا تدعى «أوبانيشاد» ، تفحص بتعمق فكرة الوحدة النهائية للكون . وهى الفكرة التى ازدهرت فى الجزء الأخير من الفيدا ، ورسالتها العظمى تتعلق بالعلاقة بين الروح والآلهة . وفى ذلك تقول بالحرف الواحد :

« هذه الروح التى تخصنى ، وتتركز فى قلبى ، هى أصغر من حبّة الأرز ، أو حبة فى سنبلة ، أو حبة خردل ، أو حبة ذرة عويجة ، أو جرثومة فى حبة ذرة عويجة » .

« هذه الروح التى تخصنى ، وتتركز فى قلبى ، هى أوسع من الأرض ، وأوسع من الهواء ، وأوسع من السماء ، وأوسع من الكون . هذه الروح التى تخصنى فى قلبى هى « البراهمان » .

وتظهر الأبيات التالية من الأوبانيشاد ، بساطة الفكر الدينى الهندوكى :

« قدنى من اللا معقول إلى المعقول ، ومن الغموض إلى الصفاء ، ومن الحياة إلى الخلود » .

والقصيدتان الشعريتان : «المهاباراتا» (١) و«الرامايانا» ، هما أيضاً من أشعار الفيدا ، ويرجع تاريخهما إلى القرن الرابع قبل الميلاد .

ويلم كل هندوكى بما ورد فيهما من أعمال البطولة ، وتمثل على المسارح والشاشة البيضاء ، وتذاع فى الراديو والتليفزيون .

وتعبّر أغانى (الباجافيتا) التى تتضمنها أشعار المهاباراتا عن جوهر الديانة

---

(١) تقول «المهابارانا» إنه إذا وضعت جميع الآلهة فى كفة ميزان – وهم يعدّون بالآلاف – وكتاب المهاباراتا وحده فى الكفة الأخرى ، لرجحت كفة الكتاب !

الهندوكية . وقد صرح بذلك الزعيم غاندى وغيره من الفلاسفة الهنود .

ومن القصص التى تتضمنها ، قصة «أرجونا» ، المحارب الذى تكوّن مآثره موضوع القصيدة . فتقول إن «أرجونا» يعلم أنه سوف يحارب فى الغد بعض أفراد من عائلته انضموا إلى العدو . ولذا فهو فى حيرة من أمره ، أيحاربهم وهم من دمه ؟ . . فكّر فى الامتناع عن الدفاع عن نفسه ، وأن يدعهم يقتلونه . ولما عرض مشكلته على سائق عربته الحربية ، الذى لم يكن سوى الإله كريشنا متجسداً فى صورة فيشنو ، ذكّره بأن الروح لا تموت ، فلا يجب عليه أن يأسف لوفاة أهله ، فهو مهما فعل فصيرهم الموت . وأنه ما دام ينتمى إلى طائفة المحاربين فواجبه هو «الدارما» . . أى القيام بواجبه وإنجازه : وهو القتال ! وأن الجوهر هو ليس فى اتخاذ قرار : أيقاتل أم يمتنع عن القتال ، بل فى «كيف» يقاتل ! فالهدف هو تأدية الواجب ، وبروح التضحية للإله . ولذا كان لزاماً عليه أن ينبذ العواطف ، وأن يطرح رغبته فى الكسب الشخصى جانباً !

وتكشف لنا هذه القصة عن المغزى الجوهرى للديانة الهندوكية ، وهو الانفصال والانعزال التام عن المسائل الدنيوية .

وتعدد تلك القصائد السبل المختلفة التى تقود إلى سبيل الله ، تلك السبل التى لا يمكن اتباعها إلا بفرض نظام صارم قاسٍ . كما تنادى بالتلاحم والوحدة مع الكون .

وقد ظهرت «البورانا» (١) خلال الألف سنة الأولى من عصرنا هذا . وهى مقتطفات من القصص والأساطير القديمة التى تعتبر أشهر ما احتوته الديانة

(١) وضعت قصائد البورانا والمهاباراتا خصيصاً لصالح النساء ، وطبقة الشودرا ، وهما اللذان استبعدا من كتب الفيدا المقدسة .

الهندوكية ، والتى بفضلها تغلغلت المثَل الدينية العليا ، عن طريق نقل الكلمة ، إلى الجماهير الأمّية من الشعب الهندى .

ومن قصص البورانا أنها تخيلت أن نظام الكون يمر بسلسلة من أربعة عصور تتوالى بدون انقطاع ، وأسمتها : «كرتيا» و«ترتيا» و«دفابارا» ، و«كالى» . ففى عصر الكالى تتحطم الطبقات الهندوكية العليا ، فى حين تتقدمها طبقات الشودرا الدنيا ، حيث يكون الإله «براهما» نائماً . وعندئذ ينتحل فيشنو هيئة شيفا ، ليدمّر الجميع . وعلى أثر ذلك يبزغ نور الآلهة من جديد . وأخيراً يصحو براهما من نومه وهو فى صورة فيشنو- الإله الرحيم- ليبدأ العالم من جديد !

وفى الفترة من سنة ١٠٠٠ - ١٧٠٠ م ، ساهم الكثير من الشعراء والأدباء فى إثراء الأدب الدينى بقصائدهم ورواياتهم ، يصيغونها باللغة العامية حتى يتفهمها عامة الشعب ، بدلاً من اللغة السنسكريتية التى كان تعليمها مقصوراً على الكهنة والطبقات العليا من البراهمة .

كما حاول بعض الفلاسفة إشراك الفكر الإسلامى مع الفكر الهندوكى . واستمرت كتب القيدا والاوبانيشاد ، واليورانا ، والقصائد البطولية والملاحم الشعبية -- وعلى الأخص الباجافيتا - هى الكتب المقدسة الرئيسية عند الهندوك حتى وقتنا هذا .

وقد أضيفت إليها على مدى العصور- وحتى السنوات الأخيرة - بعض النصوص الجديدة . وإن كانت غالبية عظمى من الهندوك لا تأخذ هذه النصوص الجديدة مأخذ التقديس .

أثر الديانة الهندوكية على الحياة اليومية

وللطقوس الخرافية القروية انعكاسات هامة وخطيرة على الحياة العملية فى الهند. تلك الحياة التى تتأثر أيضاً بالمذاهب التى تعتنقها الهندوكية العليا، وبالفلسفة التى تنبع منها.

فإذا سلّمنا بأن الديانة الهندوكية تتجه بالمرء نحو السلبية والاستسلام، فإن فى الأديان الأخرى أيضاً عنصراً من الاستسلام. وإذا كانت الهند تتغلب وتصمد أمام النوائب والكوارث التى يبتليها بها الله من وقت إلى آخر، كالحروب والغزوات والمجاعات والفيضانات إلخ... أفلا يعود الفضل فى ذلك إلى قدرة شعبها على الاستسلام، وتقبلّ المحتوم؟

ويلام على الهنود إصرارهم على ترك الحيوانات كالقرود والفئران والأبقار وغيرها حرة طليقة فى طول البلاد وعرضها، تعيث فيها فساداً وتخريباً. وفى بقائها طليقة هائمة نوع من الإخلال بالتوازن الاقتصادى للبلاد.

ولعبادة البقرة، وتوقير الماشية على وجة العموم، عواقب وخيمة على اقتصاديات الهند بصفة عامة، وعلى تربية الحيوان بصفة خاصة. ومرجع ذلك إلى وجوب ترك الحيوانات لتنفق وتموت ميتة طبيعية. وعلى ذلك يجب إطعامها، مع علمهم بانتفاء فائدتها. وإن كان تسميم الماشية بواسطة المنبوذين – وهو يعتبر عملاً غير قانونى – يساهم كثيراً فى حل هذه الأزمة.

ويعتبر روث وبول البقر مطهّراً. والهندوكى المتدين المتزمت إذا تناول طعامه مع أجنبى، سوف يطهر منزله بروث البقر بعد مغادرة الضيف له. وإذا مرّ على بقرة وهى تتبوّل كان عليه أن يبلّل جبهته وملابسه ببولها، تماماً كما يفعل

الكاثولكى بالماء المقدس . كما أن لعلف البقرة الأولوية فى أوقات الجدب وعجز المحصول !

وعلتهم فى ذلك أنه من الخطأ أخلاقياً أن يعتبر الإنسان نفسه سيد المخلوقات ! . .

وللهند حتى الآن حيواناتها المقدسة ، كما كان الحال فى مصر فى عهدها الفرعونى . فهم يوصون بأن تعامل البقرة برفق وحنان ، وأن يظهروا لها من الاحترام ما يظهرونه لصور وتماثيل الآلهة . والاعتناء بالبقرة يعتبر عملاً من أعمال التكفير والاستغفار . والمخاطرة بحياة القرد فى سبيل إنقاذ حياة بقرة ، يعتبر خطوة فى سبيل بلوغه إلى أعلى الطبقات . ولمسها مطهّر ، فبولها وروثها لهما القدرة على إزالة الدنس المادى والخلقى !

ومن البداهة أنهم لا يذبحونها . وذبحها يثير فيهم الرعب والهلع ، أكثر مما يثيرهم ذبح إنسان !

ومن العادات الشائعة أن يهب الهندوك الثيران إلى الإله شيفًا ، لتعيش حرة طليقة حول معابده ، وتتكاثر كصورة حيّة لمطية الإله المقدسة : الثور « ناندى » .

وتنطلق هذه الأبقار والثيران فى حرية تامة فى جميع أنحاء الهند . أما فى مدينتهم المقدسة « بنارس » بصفة خاصة ، فهى تسد الشوارع والأزقة ، وتعترض حركة المرور . فالبقرة معبود متحرك محصّن ، لا يفكر أحد منهم فى التعرض لها أو إيذائها ، وإلا كان جزاؤه الموت فى الحال .

وما تعنيه البقرة للإله شيفا ، يعنيه القرد للإله فيشنو . فتجد قطعان القرود وهى تتجمع حول معابده ، يعتنون بها ويوقرونها ، فهى تمثل « هنومان » القرد —

الإله الذى يصاحب الإله «راما» .

والثعبان كذلك من الحيوانات المقدسة ، وهناك معابد كثيرة تعج بها ، لا تؤذى أحداً ، ولا يؤذيها أحد .

ويطلقون على الثعابين عادة اسم «ناجا» ، ويمثلونها فى صورة إنسان ، يتميز بالمعرفة والقوة والجمال . فالثعابين ليست دائماً ضارة أو شريرة ، وهى وإن كانت حقيقة مسلحة بالسم الزعاف ، إلا أنها تمتلك أيضاً أكسير القوة والخلود !

ويظهر الجميع فى كل مكان اشمئزازهم من قتل الثعابين ، بالرغم من ضحاياها الذين يعدون بمئات الألوف سنوياً . بل يذهبون إلى أبعد من ذلك ، فيقدمون لها الذبائح !

التنجيم

والكثير من الهندوك يلجئون إلى علم التنجيم فى حالات كثيرة ، مع أنه لا صلة له البتة بمعتقداتهم الدينية . فهم يستشيرون المنجم قبل الزواج فى توافق الطالع بين الزوجين ، أو فى تحديد التواريخ ذات الفأل الحسن للقيام برحلة ، أو فى إبرام صفقة تجارية ، وهكذا .

وقد استغل المنجمون مهنتهم أحسن استغلال . إذ ليس أسهل من دفع رشوة ، قد تكون باهظة ، إلى منجم خرب الذمة ، لكى يوفق بين عروس دميمة بائرة ، وبين شاب ثرى مليح الوجه ! والعكس أيضاً صحيح .

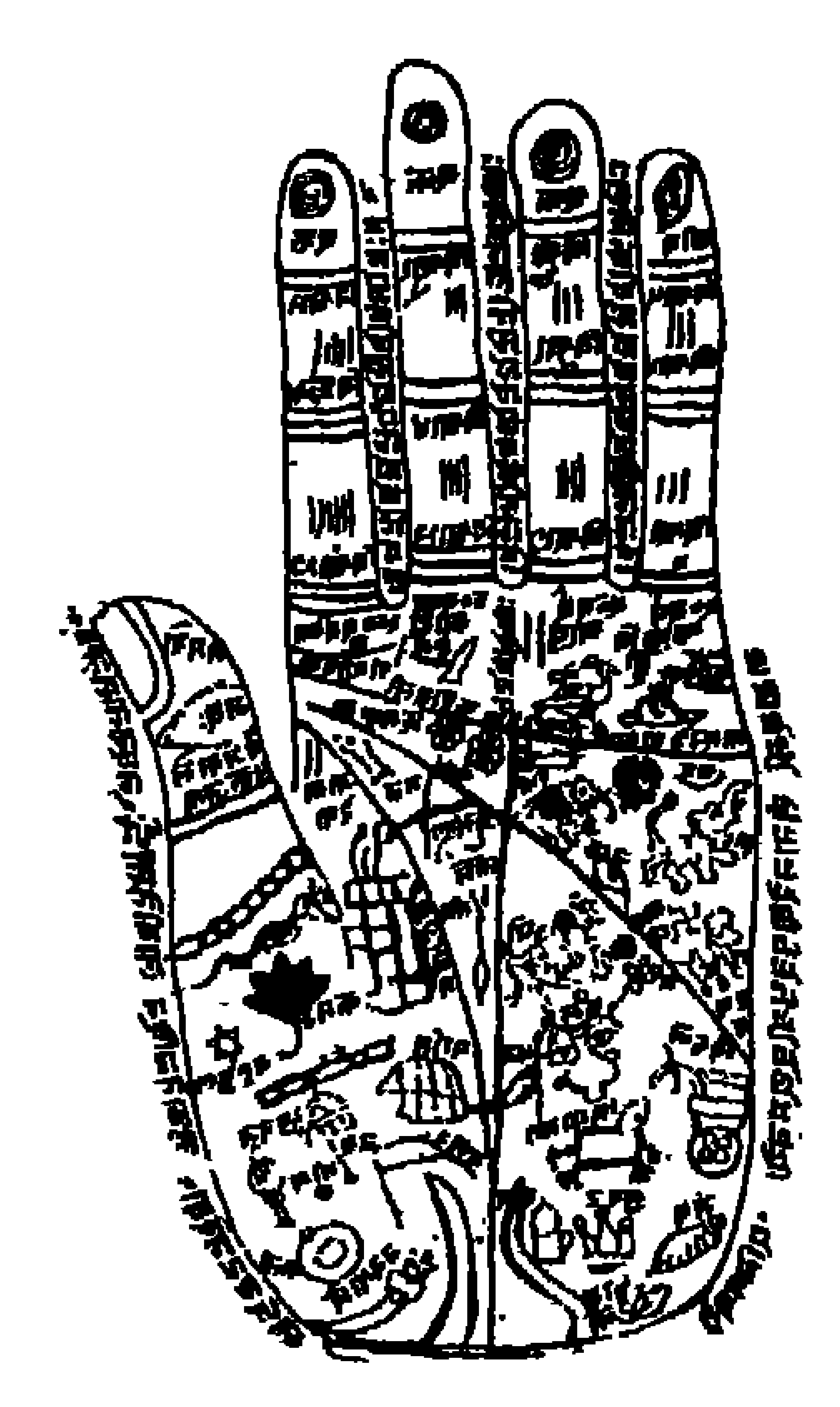
الاستقبال الحار

القرود تستقبل أحد الحجاج فى معبد بمدينة بنارس



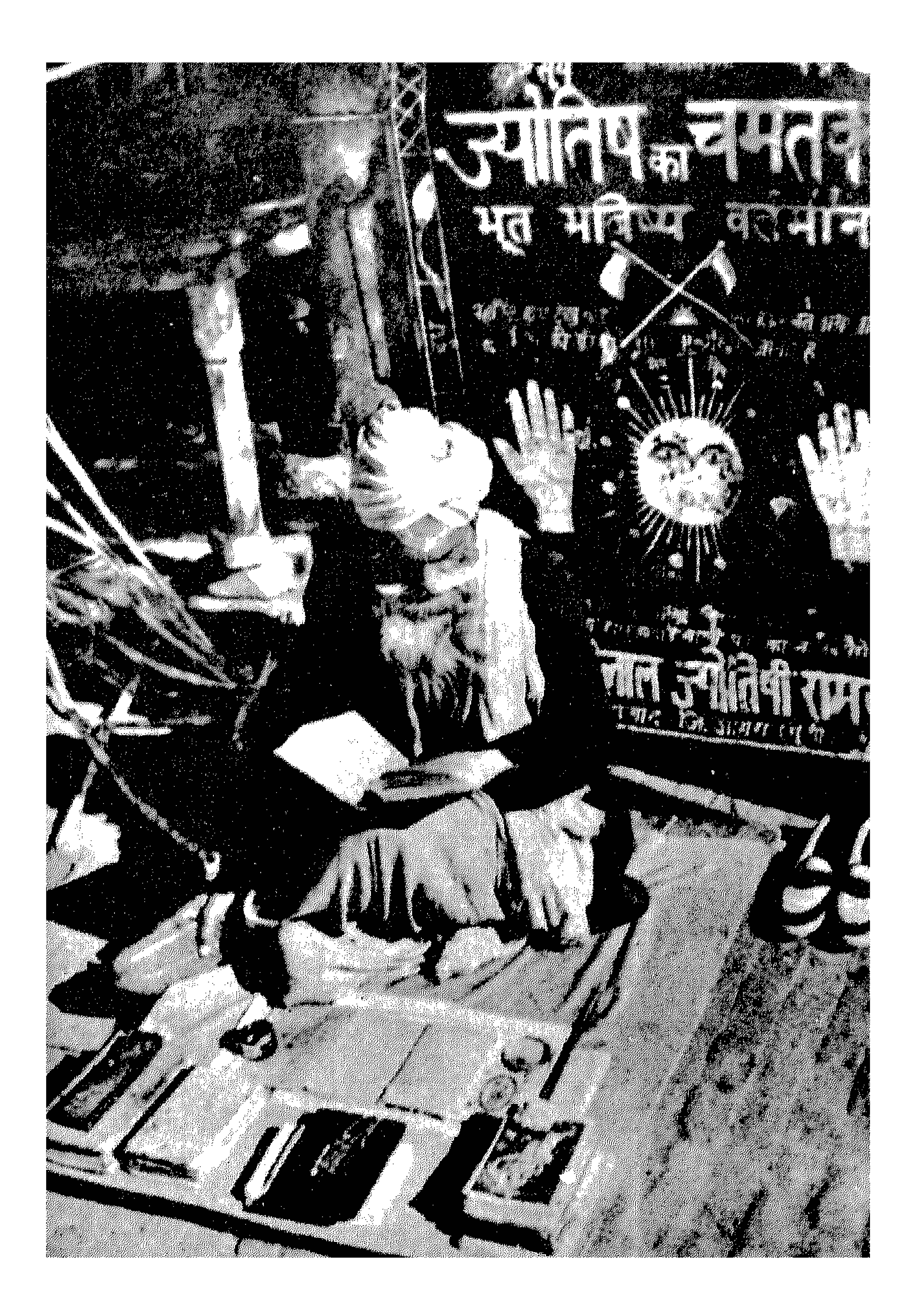
ومن الطريف أن علم التنجيم تتضمنه برامج جامعات بنارس وكلكتا وباتنا (عاصمة ولاية بيهار» . كما تمنح بعض الجامعات الخاصة التى تدعمها الحكومة الهندية المركزية ، درجة الدكتوراه فى علم التنجيم !

وغالبية الهنود ، والوزراء فى حكومة الهند ، لهم منجّمهم الخاص ، يلجئون إليه لاستشارته فى تسيير أمور الدولة وتصريفها !



وقد أبدى الزعيم الراحل نهرو مراراً امتعاضه ومعارضته تجاه زملائه الذين يستعينون بالتنجيم . ولكنه لم يقترح أبداً سنّ قانون لوضع حد لهذه الممارسة .

المنجّم يعرض بضاعته فى السوق
... والدكتوراه من جامعات الهند


ज्योतिष का

شريعة «مانو»

و«مانو» هو أبو البشر عند الهندوك . وضعت شريعته ناموساً للفضائل تنحصر فيما يلى : القناعة ، الصبر ، ضبط النفس ، التقوى ، المعرفة ، الصدق ، والتحرر من الغضب . وهذه الفضائل تلخصت فيما بعد فى الوصايا الخمس لجميع الطبقات الهندوكية ، وهى :

١ – لا تؤذى مخلوقاً حياً

٢ – أن تقول الصدق .

٣ – ألا تسرق .

٤ – أن تعيش طاهراً .

٥ – أن تضبط شهواتك .

وهذه الوصايا الخمس بالذات تعتبر الخطوة الأولى فى تعاليم «اليوجا» .

ومع كل ذلك فإن هذه الوصايا لم تضع حداً للتوتر الموجود بين نظرية الخلاص ، وبين ما جاء فى كتب الفيدا . فما زالت العوام تبحث عن الخلاص فى الكتب المقدسة ، طالما أنها لا تجد فى نفسها الكفاءة والقدرة على استيعاب الروحانيات العقلية .

فما زالت كتب الشرائع الهندوكية تتحدث عن الآلهة والتضحيات ، والجنة والنار ، كوسيلة للثواب والعقاب على أعمال الإنسان فى دنياه . ولو أنها حددت الإقامة فى الجنة أو النار بفترات محدودة ، بالإضافة إلى السعادة والهناء ، أو التعاسة والشقاء ، التى سينالها الأسلاف فى الآخرة ، كنتيجة لما سيقدمه خلفاؤهم من حسنات ، أو ما سيقدمون عليه من سيئات . ولما كانت الذرّية

تشكل عاملاً هاماً فى عقيدة «عبادة الأسلاف» ، فإن الهندوك يتساءلون عما إذا كان يسمح للمرء أن يصبح «ناسكاً» (سرامانا) قبل أن ينسل ذرية ! إذ تقول العقيدة إنه من الواجب على كل فرد أن يترك لأسلافه ذرية صالحة ، حتى إذا ما تراءى ألاّ حاجة له بعبادتهم . ولذلك فإن كتب الشرائع تأخذ هذه الحقيقة على أنها قضية مسلمة ، وهى أنه يتحتم على المرء أن يمر بجميع المراحل الزيجية حتى نهايتها ، لكى يجد ثوابه فى الآخرة . ومن هنا برز الرأى القائل بأن الحياة المستمرة – أى الخلود – إنما تتوقف على شيء واحد فقط : وهو البقاء المستمر لذريته .

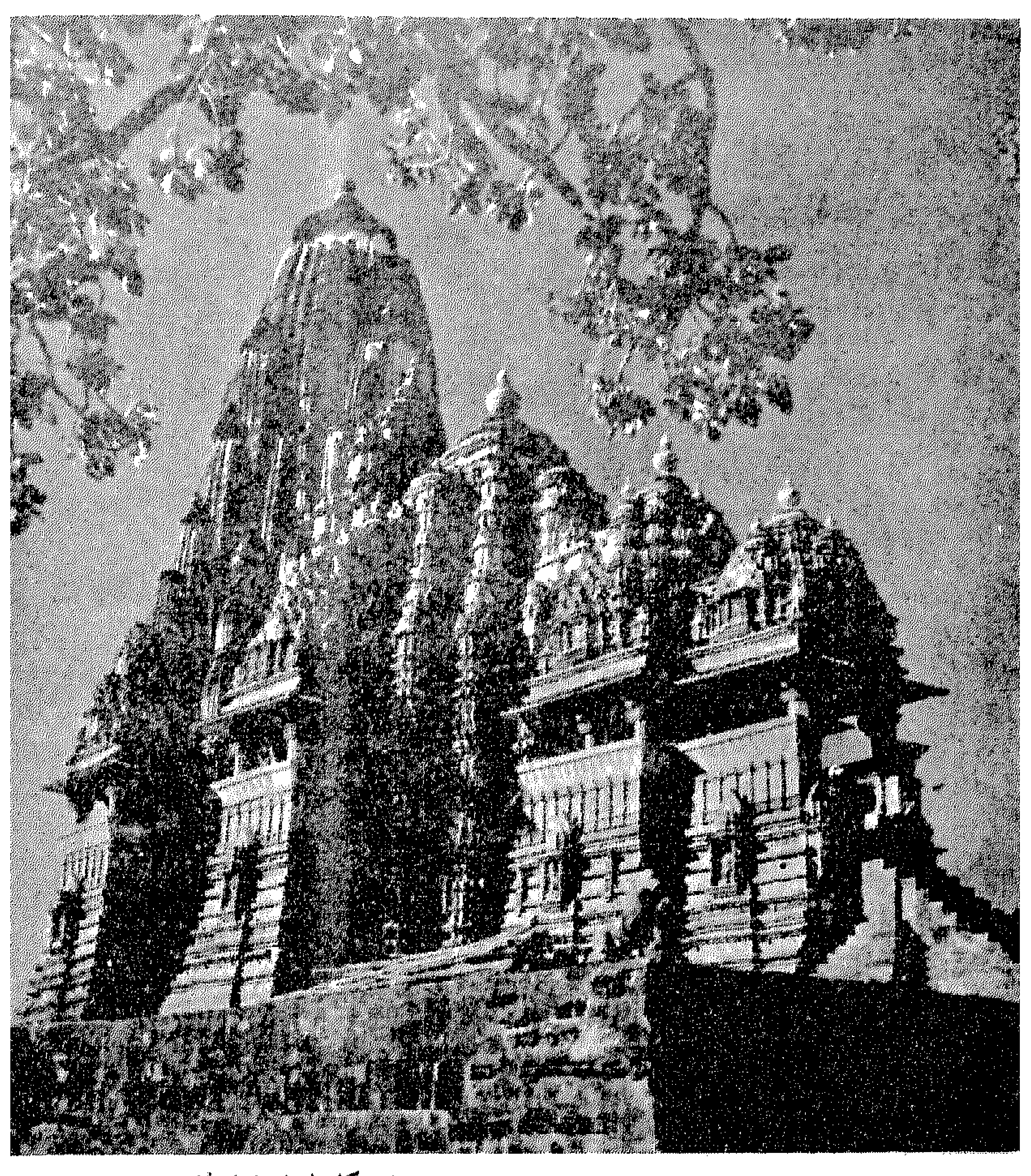
المعبد الهندوكى

موضوع العبادة فى المعبد الهندوكى هو إله أو عدة آلهة ، يختارونها من بين الكثير من آلهتهم التى تحتويها هياكلهم المقدسة .

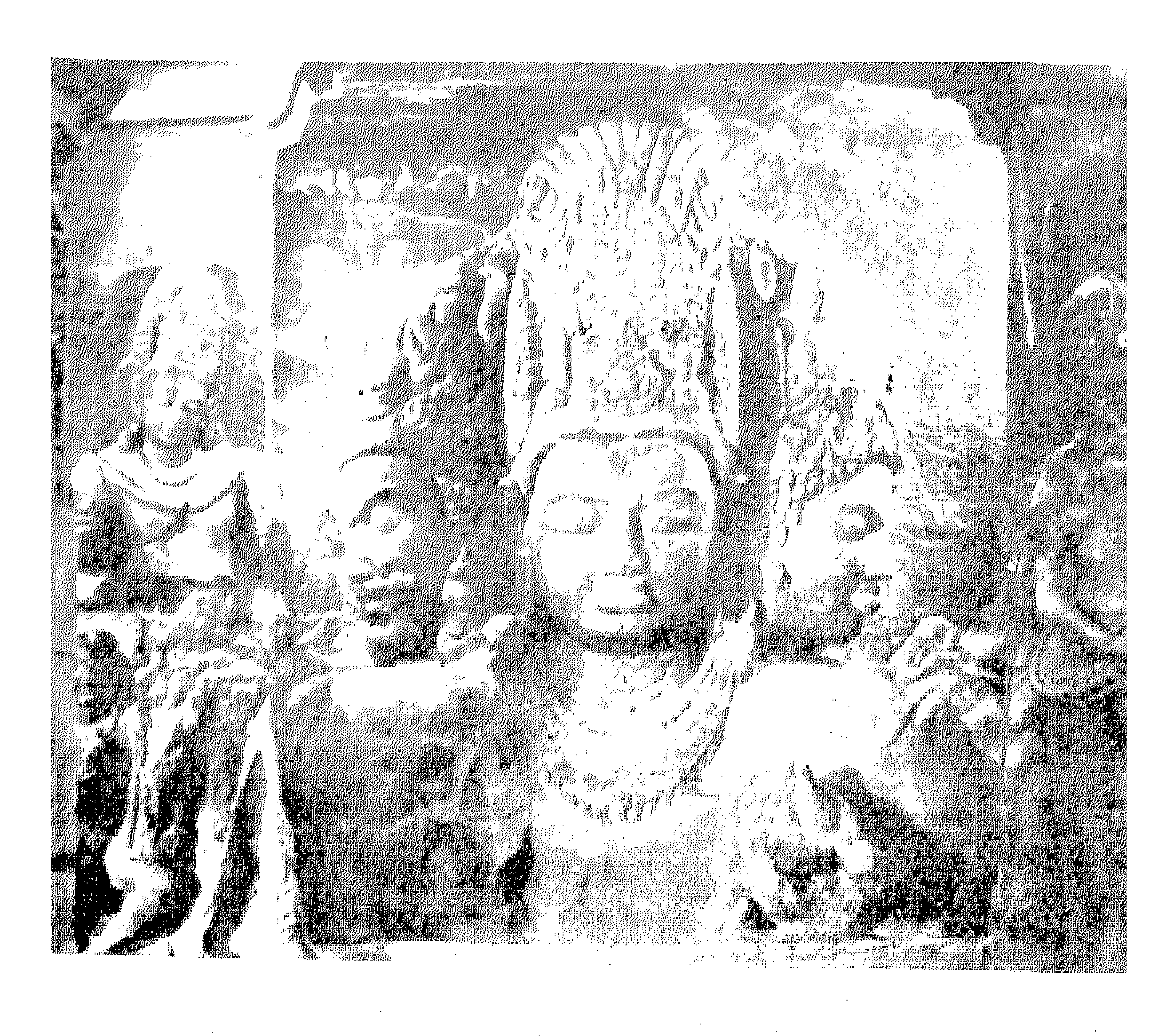
ومن بين هذه المعابد ما يخصصونه لعبادة الإلة فيشنو – الحافظ للحياة – ومنها ما هو للإله شيفا – المدمّر . ومن الغريب أن الإله براهما – الخالق – يندر أن يُوجد له معبد ، مع أنه وفيشنو وشيفا يكوّنون الثالوث الهندوكى المقدس .

والموضوع الرئيسى للعبادة فى معبد شيفا هو «اللنجام» – عضو التناسل – ويقام على هيئة حجر أسطوانى الشكل ، ويرمز إلى «الطاقة الكونية» . كما يُعبد شيفا فى جنوب الهند فى هيئة «ناتاراج» أى ملك الراقصين .

ويوضع فى معبد فيشنو ، تماثيل للآلهة ، إما فى واحدة من أربع وعشرين من صوره المختلفة ، أو فى عشرة أشكال مختلفة لتجسيداته الأرضية . كما أن هناك معابد لزوجات فيشنو وشيفا .



معبد «كانداريا ماهاديفا» – خاجوراهو



الثالوث الهندوكى المقدس

الإله «شيفا» فى أحد مظاهره للثالوث المقدس : الخالق والحافظ والمدمر .

ومن الآلهة الشعبية المعروفة التى يعبدها الهندوك – ولعله أشهرها – هو «الجانيش»–أوجانياتى – وهو إله الحكمة ومزيل العقبات ، وابن الإله شيفا . وله رأس فيل على جسم إنسان ، وتبرز من جنبيه عدة أذرع .

والمعبد الهندوكي بناء فريد فى نوعه ، يختلف تماماً فى تصميمه عن أماكن العبادات الأخرى مثل الجوامع والكنائس .

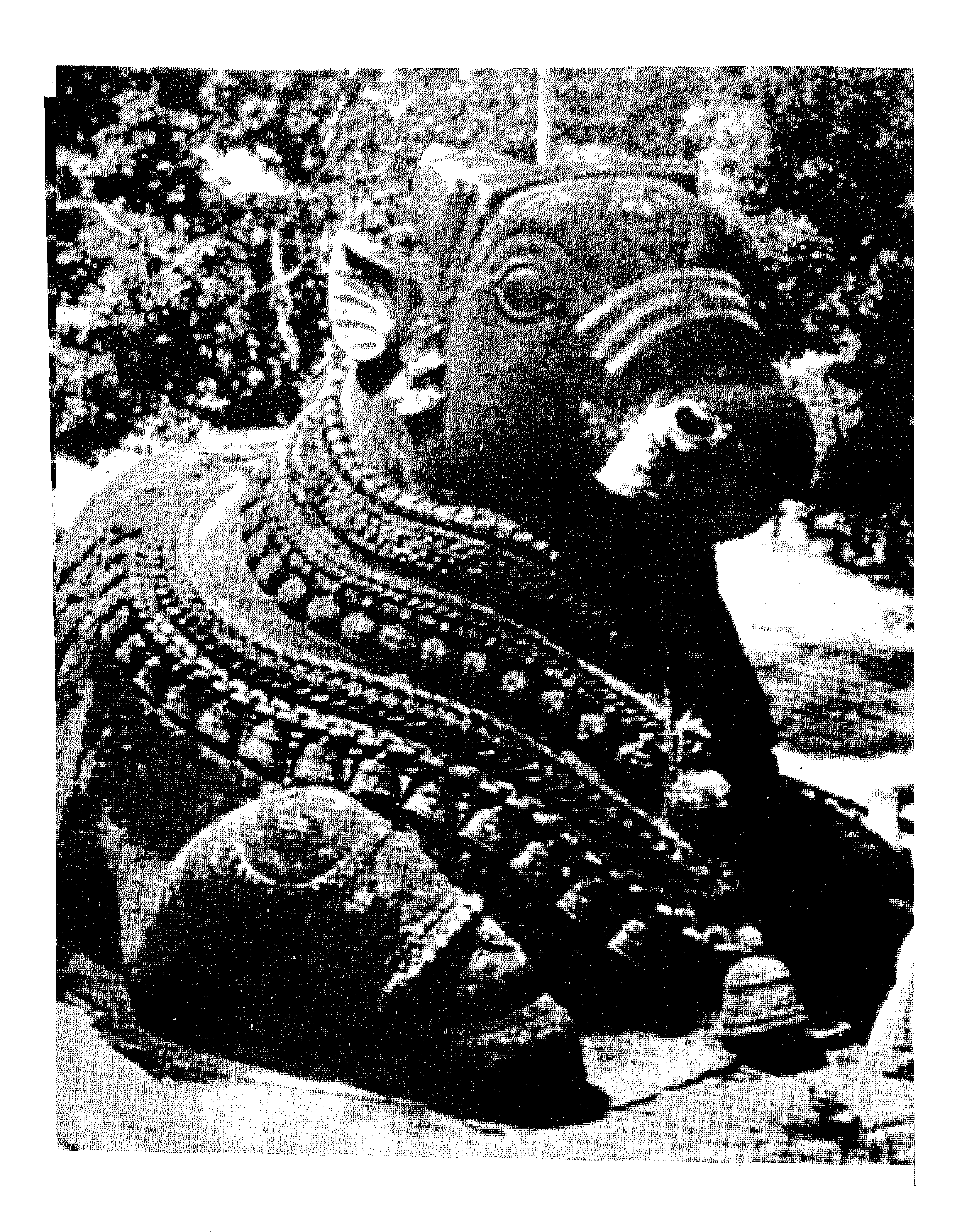
ويتكون هذا المعبد من حجرة صغيرة ، تقابل المحراب فى الجامع ، أو قدس الأقداس فى الكنيسة ، يطلقون عليها «جاريا جريها» ، وتعنى «حجرة الرحم» ، وهى غرفة صغيرة مظلمة بها الإله الرئيسى ، وغالباً ما تنحت من الحجر . فالهندوك لا حاجة لهم بصحن أو فناء متسع ، فهم لا يصلون جماعة ، بل يتعبد كل منهم لإلهه على انفراد .

ويعلو هذه الحجرة البرج الرئيسى للمعبد . وباب الحجرة يتجه دائماً نحو الشرق . وهناك حجرة متوسطة الحجم ذات أعمدة ، يجتمع فيها المصلون للعبادة ، ويطلقون عليها «ماندايا» ، وتعلو جميع الغرف أبراج تتدرج فى الارتفاع حتى تصل إلى الباب الرئيسى ، الذى يعلوه أقصر الأبراج . ويدور حول حرم المعبد طريق يستعمله المتعبدون للطواف .

وإذا كان المعبد للإله شيفا ، فنجد هناك حيواناً فى مواجهة البوابة الرئيسية يكرس لمطية الإله ، وهو الثور «ناندى» . وبين صيوان الثور ناندى والبوابة الرئيسية ، يثبتون صارياً طويلاً للعلم ، وهو رمز سلطة الإله !

ويحتوى المعبد الهندوكى على ما لا حصر له من التماثيل التى تمثل الآلهة والآلهات ، والعذارى الجميلات ، وتصميات للأزهار ، والفيلة ، والجياد ،


الثور «ناندى» مطية الإله «شيفا»



والعربات ، ومناظر للمعارك ، والأقزام ، والشياطين ، والقصص المستقاة من الأساطير ، والكثير من المناظر الجنسية الفاضحة المثيرة .

والأخيرة يقصد بها إظهار نشوة الآلهة فى أثناء عملية خلق عالمنا هذا !

ويقوم المثال الهندوكى بنحت هذه الروائع الفنية بوازع دينى ، وإيمان عميق ، وحباً وولاء لآلهته ، ولا يعلن عن اسمه .

والمعبد الهندوكى هو أكثر من مكان للعبادة . فقد أصبح مركزاً للحياة الثقافية والاجتماعية . وبناؤه يتسلط على ما حوله من الأماكن ، سواء أكان بموقعه أو بحجمه .

وقد نمت القرى حوله حتى أصبح محوراً لجميع الأنشطة المختلفة . وامتد تأثيره خارج نطاق الدين والروحانيات ، وصار عاملاً مهماً فى اقتصاديات القرية أو المدينة . كما أصبح المعبود من «كبار الملاك» ، يتلقى الهدايا من الملوك والرؤساء والتجار وعامة الشعب . هذا بالإضافة إلى بعض الضرائب المحلية التى يفرضها على رعاياه المؤمنين !

وبذلك أثريت المعابد واغتنت ، حتى أصبحت كالبنوك تعمل على إقراض الفلاحين . كما أصبح النشاط اليومى فى المعبد مصدراً للعمل لطائفة كبيرة من الناس ، منها الكاهن ، والموسيقى ، والراقصة ، والمدرس ، والبستانى ، والترزى ، والكاتب ، والمحاسب ، وغير ذلك الكثير .

نشوة الآلهة عند
خلق عالمنا الأرضى



الإصلاح الدينى

رام موهان روى – ١٧٧٢ – ١٨٣٣ م

ويعتبر موهان روى أول من بدأ عصر الإصلاح الدينى الهندوكى ، الذى بدأ فى القرن التاسع عشر . وقد ولد فى عائلة دينية محافظة من طبقة البراهمة العليا فى البنغال ، وتوفى فى مدينة « بريستول » بإنجلترا .

تلقى التعليم الهندوكى والإسلامى ، والأخير كان ضرورياً للالتحاق بالوظائف الإدارية . ولما كان صغير السن فقد أمكنه إجراء المقارنة بين الهندوكية والإسلام . كما كان يتكلم السنسكريتية ، وهى لغة النصوص الهندوكية المقدسة ، والعربية وهى لغة القرآن ، والفارسية لغة المغول المستعملة وقتئذ فى الجهاز الإدارى .

وفى سن الثانية عشر اعتنق بعض الآراء المخالفة للديانة الهندوكية الشعبية السائدة ، مما دعاه إلى الانفصال عن أبيه المتزمت ، وهو فعل يندر حدوثه فى العائلات الهندية ، حتى فى أيامنا هذه .

وفى محاولة منه للوصول إلى الحقيقة ، تعلم الإنجليزية ليقرأ بها الإنجيل ، والعبرية واليونانية ليتعرف بهما على النصوص الأصلية .

واعتزل فى سن الأربعين حينما استقر فى مدينة كلكتا ، مكرساً حياته لوضع الإصلاحات التى ألهمه إياها النفوذ الغربى ، كمنع تعدد الزوجات ، وإدخال نظام المحلفين فى المحاكم ، ورفع الحظر على الأرامل والسماح لهن بالزواج مرة ثانية .

وإليه يرجع الفضل فى إدخال نظام التعليم البريطانى واللغة الإنجليزية إلى الهند عام ١٨٣٥ ، مما كان عاملاً حاسماً فى تفضيل النظام البريطانى فى الإدارة عن النظام الهندوكى .

سوامى (ديانند ساراسواتى) ١٨٢٤ - ١٨٨٣ م .

ثم ظهر بعد ذلك مصلح آخر يدعى سوامى ساراسواتى (وسوامى لقب يعنى «قديس») ، وهو ابن كاهن يعتنق عبادة الإله شيفا . ولكن الابن الصغير لم يقتنع بأن هذا الإله يتقمص حقيقة تمثال شيفا . ففر من المنزل وانضم إلى فئة «السنياسى» (النساك المتجولون) ، وكان هدفه من ذلك هو تطهير الديانة الهندوكية ، وإعادتها إلى نبعها الأصلى .

وكان شعاره : العودة إلى الفيدا . وتفسيره لذلك أن الكتب المقدسة تحتوى على ما فيه الكفاية من الحقائق والتعاليم التى يحتاجها الإنسان ، وهذا يعنى نبذ جميع الكتابات اللاحقة على الفيدا ، بما فيها فلفسات الأوبانيشاد والباجافيتا العميقة .

وكان ساراسواتى يؤكد سخافة عقيدة عبادة الأصنام ، وأن تقديم الضحايا

الحيوانية لغذاء الآلهة ما هي إلا خرافات ، وأن الكثير من العادات كزواج الأطفال ، وتقسيم الطوائف والطبقات ، ما هي إلا عادات فى حاجة إلى إصلاح شامل .

ولكنه نادى فى الوقت نفسه بمحق جميع الأديان الدخيلة على الهند . وذهب فى ذلك إلى المطالبة بعودة الهندوك الذين اعتنقوا الإسلام من قديم – وهم يعدّون بمئات الملايين – إلى الديانة الهندوكية .

وبطبيعة الحال كان فى ذلك كمن يؤذّن فى مالطة . . . وينادى بالمستحيل !

وقد أسس عام ١٨٨٢ «جمعية المحافظة على الأبقار» بهدف تحريم ذبحها لأى سبب من الأسباب . كما أنشأ جماعة «آريا ساماج» – أي جماعة الآريين – فى ولاية البنجاب ، حيث ينتشر فيها الجنس الآرى – وكان الغرض من إنشاء هذه الجماعة إقناع الغزاة البريطانيين بأن أعضاء الجماعة إنما ينتمون إلى نفس سلالة الغزاة !

وقد وجّه اعضاء هذه الجماعة نشاط قضيتهم بعد استقلال الهند إلى كوادر الأحزاب الدينية المحافظة ، وأهمها حزب (جانا سانج) المتعصّب .

راما كريشنا باراما هنسا

ثم ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر رجل يدعى باراما هنسا ، كرس حياته لخدمة معبد الإلهة «كالى» المخيفة ، شمالى مدينة كلكتا . وكانت واجباته المقدسة تتضمن تقديم الضحايا الحيوانية على مذبح هذه الإلهة ، وهى الممارسة التى حرّمها سلفه سوامى ساراسواتى .

وراما كريشنا متصوف أدعى أنه رأى الإله كالى وغيرها من الآلهة والأنبياء

مثل كريشنا والمسيح . وكان يدعو إلى إحياء العواطف والنزعات الدينية الهندوكية ، والعودة بها إلى المعتقدات القديمة .

وكان ينادى فى مريديه بأن الاتصال بالإله هو الغرض الأسمى فى حياة الإنسان . وأن البحث عن الله إنما يكون عن طريق إنجاز الأعمال الصالحة ، وإصلاح النظام الاجتماعى .

فيفاكاندا ١٨٦٣ – ١٩٠٢ :

وهو تلميذ راماكريشنا ، وأدخل الهندوكية الحديثة فى الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا ، حيث اعتنقها الكثيرون هناك .

رابندرانات طاغور ١٨٦١ – ١٩٤٨ :

وأخيراً لاقت مثل هذه الرجعية الوطنية خصماً عنيداً مختلفاً ، ولكنه مؤمن برسالته ، وذلك فى شخص شاعر الهند الحديثة ، البنغالى رابندرانات طاغور ، الذى كان يهتم بتدعيم التقارب بين الفكر الشرقى والمدنية الغربية .

فقد أكد طاغور على وجوب التفاهم بين التقاليد الروحية بين الشرق والغرب . وحارب الرأى الذى يعتقد فيه الهنود ، وهو أن الهند وحدها هى التى تعتنق الروحية ، على حين يعتنق الغرب المادية . وظل يدافع طيلة حياته فى سبيل الدعوة إلى خلق وطنية جديدة ، أساسها التفاهم المشترك بين المدنتين المتناقضتين .

غاندى ١٨٦٩ – ١٩٤٨ :

ولكن لا شك فى أن أكثر هؤلاء الرواد نفوذاً فى الهند هو الزعيم غاندى ، الذى يدين له الفكر الهندوكى بنزعة جديدة .

ظل غاندى مخلصاً للهندوكية طيلة حياته ، بالرغم من ميله الشديد إلى الديانة المسيحية وهو فى شبابه . حتى أن أصدقاءه من بين المبشرين كانوا يأملون فى رده عن الهندوكية . ولكنه كان يعتقد فى أن الإنسان يرتبط بالدين الذى ولد عليه ، وأن جميع الأديان تحوى الحقيقة بشكل أو بآخر ، وأن فى إمكان الإنسان أن يصل إلى الكمال باتباع دينه الطبيعى .

ولعل فى اعتقاده هذا ما جعله يعارض جماعة الآريين – آريا ساماج – فى محاولتها رد المسلمين فى الهند إلى الديانة الهندوكية .

ولم يحاول غاندى أن يقترح عقيدة أو مبادئ جديدة . ولكنه كان هندوكياً شديد التدين . فهو يوقر الكتب المقدسة ، ويحترم الصفة المقدسة التى يضفونها على البقر ، ويتقبل نظام تخصيص كل طبقة أو طائفة هندوكية لواجبات مقررة لا تتعداها . كما لم يعترض على عبادة الأصنام .

فكان يرى فى كل هذه المزاولات إدراكاً جديداً واسعاً ، وأنها لا تخرج عن كونها مظهراً رمزياً ، كصورة العذراء ، أو تمثال كريشنا ، أوكتاب مقدس ، أو صليب من حجر . ويرى فى تقديس البقر رمز الاتحاد الذى لا ينفصم بين الإنسان وعالم الحيوان !

كما كان يسعى إلى تحرير طبقة المنبوذين ، وأطلق عليهم لفظة « هاريجان » ، أى أبناء الله . كما كان ينفر من التمييز بين الطبقات ، ولكنه كان يوافق فى الوقت

نفسه على أن الوراثة تهب الإنسان صفات ومؤهلات مختلفة ، وهى التى تمنحه الامتيازات والصلاحية للقيام بواجبات معينة .

ولم يكن غاندى يهتم إلا بالمسائل الحيوية ، كالبحث عن الحقيقة ، والنقاء ، وعدم العنف ، والحب ، والعمل للمستقبل .

ولعل أعظم أعماله الجديرة بالإعجاب ، بجانب حركة العصيان المدنى « ساتيا جراها » التى قام بها ، هى أنه أضفى مغزى ومفهوماً جديداً لمعتقدات وتقاليد الديانة الهندوكية . فقد حاول بصفة خاصة أن يغرس فى نفوس الهندوك الشعور بالمسئولية ، والرغبة فى تحقيق العدالة الاجتماعية .

الأقليات الدينية فى الهند

كثيراً ما يتبادر إلى الذهن أن لفظة «هندى» مرادفة لكلمة «هندوكى» ، أى الشخص الذى يدين بالديانة الهندوكية .

ولكن الواقع أن الهندى قد يكون مسلماً ، أو مسيحيًا ، أو بوذيًا ، أو سيخيًا ، أو جانيًا ، أو بارسيًا . وهذه هى الديانات الست الأخرى – بجانب الهندوكية – التى يعتنقها حوالى ١٥ ٪ من مجموع عدد سكان شبه القارة الهندية ، الذى ينوف عددهم على الستمائة مليون نسمة .

وكانت هذه النسبة تصل إلى ٢٥ ٪ قبل التقسيم عام ١٩٤٧ ، ونزوح مجموعات إسلامية ضخمة لتأسيس الدولة الجديدة : الباكستان .

ويخلق وجود الأغلبية الهندوكية الساحقة فى الهند مشاكل شائكة ، بالرغم من السياسة الدينية التى تسير عليها الحكومة الآن ، هى نفس السياسة الدينية التى

كان يتبعها المؤتمر الوطنى الهندى قبل الاستقلال ، وهى الحياد التام بين المجموعات والاقليات الدينية المختلفة .

وينص الدستور الهندى على أن كل تمييز فى التعليم أو الوظائف الإدارية أو خلاف ذلك ، ويرتكز على أسباب دينية ، فهو باطل . وهذا القانون أصدرته الجمعية الدستورية عام ١٩٤٩ ، وغالبية أعضائها يدينون بالهندوكية .

ولكن بالرغم من ذلك ، فإن هذه الخطوة التى كان الهدف منها هو فرض المساواة بين الجميع ، لم تكن كافية لمنع الاحتكاكات ، ووقوع الاضطرابات الدموية بين المجموعات الدينية المتناحرة .

ولا جدال فى أن الزعيم الراحل نهرو سعى مخلصاً طوال حياته إلى الحفاظ على الحياد الدينى للدولة الهندية ، وإن كان المهتمون بمسائل الأقليات الدينية يخشون من أن خلفائه فى الحكم لن يتمكنوا من اتباع خطاه .

وهناك أحزاب سياسية تنتقد بشدة مبدأ الدولة المحايدة ، بل تحارب فى سبيل تأييد فرض الهندوكية كدين رسمى للدولة . ولكن بالرغم من أن هذه الأحزاب تكسب المزيد من الأصوات المؤيدة فى كل انتخاب جديد ، إلا أنها ما زالت تبدو ضعيفة ، وخاصة بجانب حزب المؤتمر . وبالتالى فمبدأ الحياد ما زال بعيداً عن دائرة التهديد والخطر .

ولكن مع ذلك ، فإن الأقليات الهندية يساورها القلق من أن المتطرفين الهندوك ما زالوا يكسبون أرضاً جديدة بمرور الزمن .

١ – الإسلام

بدأ العصر الذهبي الإسلامى فى الهند بالغزو المغولى لشمالى الهند . ومؤسس السلالة المغولية هو «ظهير الدين محمد بابر» الذى وفد إلى الهند من آسيا الوسطى فى الثلث الأول من القرن السادس عشر . ولكن حكمه كان قصيراً ، وتوفى عام ١٥٣٠ . ويعتبر حفيده «جلال الدين محمد أكبر» الذى حكم من عام ١٥٥٦ حتى ١٦٠٥ هو المؤسس الحقيقى لدولة المغول فى الهند .

ويعتبر العصر المغولى واحداً من أعظم الحقبات المميزة فى تاريخ وثقافة الشعب الهندى . فهو يتميز بإدارة مركزية حكيمة ، وبإنجازات رائعة فى الفن والأدب والهندسة ، وبتوجيه الثقافات المختلفة نحو التماسك الاجتماعى ، وتنمية الزراعة والتجارة الداخلية والخارجية .

ولعل أهم مظهر للحكم المغولى فى الهند هو نشر الوعى والإدراك بالدولة العلمانية التى أسسها الإمبراطور أكبر . وإن كانت هذه الإمبراطورية قد زالت ؛ إلا أن آثارها ما زالت باقية حتى الآن . وإنجازاتها العظيمة لم تتحقق إلا بتطبيق مبادئ جديدة ، أساسها حرية الرأى والإنصاف والعدالة ، كما تنادى بالحياد ، وأن الدولة يجب أن تقف فوق الأديان .

ومن مآثر أكبر إلغاء ضريبة الحج والجزية المفروضة على الهندوك ، تحقيقاً لمثله العليا . وهو بذلك منحهم المساواة فى القومية ، وكسب فى الوقت نفسه الولاء السياسى لطبقة الراجيوت المحاربين الأشداء .


بسم الله الرحمن الرحيم

الخلافات بين المسلمين والهندوك

عندما احتل البريطانيون البنغال عام ١٧٥٧ ، ومدّوا فتوحاتهم بعد ذلك إلى غيرها من المناطق ، كان معظم الحكام الذين عزلهم البريطانيون من المسلمين .

وبذلك وجد الأرستقراطيون المسلمون أنفسهم على حين غرة – باعتبارهم الأعداء المهزومين – أنهم قد حرموا من الوظائف الحكومية والعامة . أما ما بقى منها فكانت فى مستوى أقل مما هو جدير بمركزهم ، ومعظمهم من العسكريين وكبار الموظفين .

ولم يستفد المسلمون ، كما استفاد الهندوك ، من المدارس والمعاهد التى فتحها البريطانيون ، حيث أن أساس التعليم عند المسلمين كان القرآن الكريم .

ونتيجة لذلك ظهر من بين الهندوك الكثير من رجال الأعمال الأثرياء المتعلمين ، فى حين ظلت الأرستقراطية المسلمة تعتمد فى حياتها على القليل مما تبقى لها من الأراضى الزراعية . وأصبح المسلمون الفقراء فى القرى يعيشون فى نفس المستوى ، وبالطريقة التى يعيش بها الصناع والفلاحون الهندوك – أى الطبقات الدنيا . كما كانت مساكنهم تتجمع فى ركن أو مكان منعزل من القرية الهندية . ولكن بالرغم من أنهم كانوا يشاركون فى الحياة الاقتصادية للقرية ، إلا أنهم كانوا يكوّنون طائفة منفصلة منعزلة مميزة .

وقد بدأ البريطانيون فى تقديم المساعدات المالية للمسلمين فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . وكان من نتائج هذه المساعدات أن أسس « السير سيد أحمد خان » مدرسة ذات طابع جديد فى مدينة « أليجار » (عليكرة) ، وتقع فى ولاية « أوتاربراديش » فى شمالى الهند ، خصصت لأبناء الطبقات العليا من المسلمين .

ولم يقتصر التدريس فى هذه المدرسة – وهى جامعة عليكرة الآن – على العلوم القرآنية ، بل شملت العلوم الغربية الحديثة أيضاً ، وأصبحت هذه المدينة تبعاً لذلك مركزاً لتجديد الفكر الإسلامى وتطويره فى الهند ، وإعطائه دفعة قوية إلى الأمام (١) .

ولكن مع ذلك ، لم يتمكن المسلمون فى تلك الفترة القصيرة من اقتلاع الهندوك أوزحزحتهم عن الإدارة والأعمال كسابق عهدهم ، وكان من نتيجة هذا التخلّف الثقافى والمالى أن انغرس فيهم الخوف والوهم من أن حصول الهند على استقلالها ، لن يصبح سوى مقدمة لبدء السيطرة الهندوكية ، واضمحلال النفوذ الإسلامى .

هذا وقد عارض السير سيد أحمد خان كل المحاولات التى كانت تهدف إلى التغييرات الدستورية التى من شأنها أن تحصل الهند من البريطانيين على الحكم الذاتى .

وفى عام ١٩٠٦ قدمت مجموعة من مدرسة عليكرة – بتشجيع من البريطانيين – ملتمساً إلى نائب الملك ، تطلب فيه أن يؤخذ فى عين الاعتبار وضع المسلمين كأقلية ، وأن يخصص لهم عدداً معيناً من الوظائف الإدارية ، وأن يكون لهم الحق فى مكان بالمجالس الحكومية ، سواء أكان فى الحكومة المركزية ، أم فى حكومات الولايات . وقد وعدهم نائب الملك بأن حقوق المسلمين سوف تحفظ وتصان .

---

(١) توجد الآن فى الهند معاهد متخصصة فى اللغة العربية والعلوم الدينية ، أهمها : «دار العلوم» بديوبند ، و«ندوة العلماء» بلكناو ، و«الباقيات الصالحات» بمدراس ، و«دار السلام» بعمر أباد ، و«الجامعة الملية» بدلهى ، و«الجامعة العثمانية» بحيدر أباد .

ثم صدر قانون فى عام ١٩٠٩ هيأ لوضع نظام انتخابى من شأنه أن يقصر على المسلمين انتخاب مرشحيهم للوظائف المخصصة للمسلمين . ولكن المؤتمر الوطنى الهندى عارض فى هذا الإجراء بشدة ، وهو الإجراء الذى يعتبره الهندوك حتى يومنا هذا أول خطوة سلكها البريطانيون فى سبيل تنفيذ سياستهم التقليدية . . وهى « فرق تسد » .

وقد أدى استرداد المسلمين لبعض الامتيازات الخاصة إلى تمهيد الطريق لإنشاء « الرابطة الإسلامية » التى اجتمعت لأول مرة عام ١٩٠٦ . ولو أن بعض زعماء المسلمين كانوا يفضلون العمل داخل إطار المؤتمر الوطنى الهندى ، عن العمل داخل منظمة سياسية ذات ميول دينية بحتة .

وفى هذه الفترة أعلنت الرابطة الإسلامية ولاءها للتاج البريطانى ، مقابل حصولها على التأييد البريطانى ، وهو ما اعتبره المؤتمر الوطنى خيانة للقضية الوطنية .

والسؤال الآن هو هل تعمدّ الساسة الإنجليز حقيقة بمحاباتهم للمسلمين زرع بذور الخلاف بين الطائفتين الكبيرتين فى الهند ؟

كان بعض الساسة يعتقد أن اتباع سياسة « فرق تسد » هى السياسة الوحيدة التى سوف تحتفظ لبريطانيا بسيادتها على الهند ! ولم يخطر على بال أحد منهم بطبيعة الحال أن هذه السياسة الممقوتة كانت ستؤدى فى المستقبل القريب إلى الانقسام السياسى الكامل لشبه القارة الهندية .

ولم يكن أحد منهم ليتصور وجوداً للهند بغير الإنجليز !

وقد تحول الكثير من المسلمين الهنود ضد بريطانيا عندما أعلنت الحرب على تركيا عام ١٩١٤ . فقد كانت تركيا فى هذا الوقت مركزاً للخلافة ، وإعلان الحرب على خليفة المسلمين هو إعلان الحرب على الإسلام ! وعند إعلان الهدنة

التى انتهت بتمزيق تركيا . إئتلف المسلمون والهندوك فى «مؤتمر الخلافة» تحت زعامة غاندى للاحتجاج على ذلك . ولكن المسألة انتهت بسلام عندما خلع الأتراك أنفسهم الخليفة عام ١٩٢٢ .

وقد أدت الاحتكاكات التى ظهرت من جديد بين المسلمين والهندوك إلى حركات من التمرد . وعاد الكثير من المسلمين إلى عهدهم السابق من الاعتماد على الحماية البريطانية . خاصة بعد عام ١٩٢٨ عندما نكص حزب المؤتمر عن موقفه ، ورفض إجراء الانتخابات المنفصلة .

ولكن حدث فى انتخابات ١٩٣٧ – وهى الأولى من نوعها التى جرت بعد صدور دستور ١٩٣٥ – الذى منح الحكم الذاتى للولايات الهندية – أن الرابطة الإسلامية لم تحصل إلا على نسبة ضئيلة من الدوائر ، حتى فى الولايات ذات الأغلبية المسلمة ؛ وعندئذ وجدت الغالبية من المسلمين أن من الحكمة التعاون مع حزب المؤتمر الهندى ، وكانت قوته قد زادت ونمت تحت قيادة الزعيم غاندى

وصادف أن لاقت الرابطة الإسلامية نجاحاً منقطع النظير بعد الانتخابات مباشرة . فقد طلب «محمد على جناح» – الذى صار أول حاكم عام لدولة الباكستان فيما بعد – بعدد معين من المراكز الوزارية للمسلمين . ولكن المؤتمر الوطنى لهندى الفائز فى الانتخابات لم يجد مبرراً لقبول هذا الطلب ، وعلى اعتبار أن الحزب هو مؤسسة وطنية محايدة يجب الابتعاد به عن الزج فى المسائل الدينية .

وعلى أثر ذلك اتهم محمد على جناح حزب المؤتمر الهندى بأنه يتعمد وضع العراقيل أمام الرابطة الإسلامية ، وأنه يرفض اقتسام السلطة مع المسلمين الذين لا يرضخون لإرادته ، أو يمتنعون عن خدمة مصالح الهندوك . وقام بعد ذلك بحملة دعائية واسعة لاقت على الفور نجاحاً ساحقاً .

تلقى محمد على جناح تعليمه فى الغرب ، وكان محامياً بارعاً صادف نجاحاً مرموقاً فى مهنته ، ولعب دوراً هاما فى حزب المؤتمر الوطنى الهندى حتى ظهر غاندى .

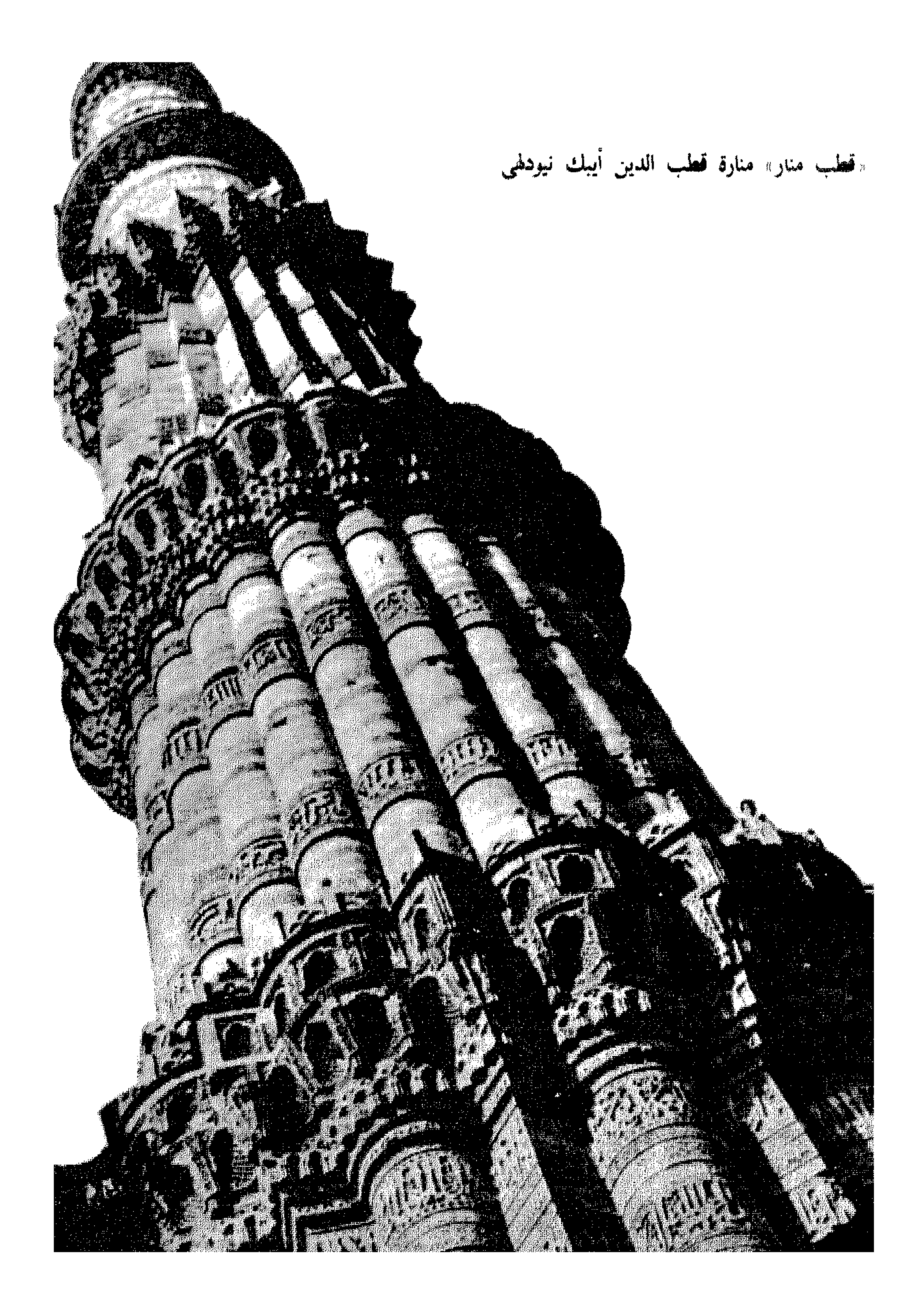
وكان جناح على نقيض غاندى ، أرستقراطيا ، يهتم بالشكليات والمظاهر ، متباعداً ، صارماً ، دقيقاً . وكان لا ينقطع عن الترديد أمام مستمعيه من المسلمين أن الهندوك والمسلمين شعبان مختلفان ، وأن السلطة سوف تتحول إلى الهندوك إذا ما غادر الإنجليز الهند ، وعندئذ سوف يرزح المسلمون تحت النير الهندوكى . وأن الخطر من الاستعباد الهندوكى لن يقتصر على دينهم فقط ، بل على مستقبل عملهم وفرص نجاحهم .

مولد دولة الباكستان

وفى عام ١٩٤٠ اقترح جناح على الموالين له اتخاذ قرار لصالح تأسيس دولة جديدة ، هى دولة الباكستان (أى أرض الأطهار) ، تقتطع من شبه القارة الهندية .

وكانت الفكرة العامة أن تضم المناطق التى يكون فيها المسلمون أغلبية سكانها إلى هذه الدولة الحديثة . ولما كان بعض هذه المناطق يقع فى الشرق ، والبعض الآخر فى الغرب ، فقد اقترح تكوين دولتين إسلاميتين بدلاً من واحدة . على حين اقترح البعض الآخر ، ومنهم جناح ، إنشاء دولة واحدة ، على أن يصل بين المنطقتين ممر يعبر شمال شبه القارة .

ولكن كان عليهم مواجهة الكثير من الصعاب والعقبات. فكلا المنطقتين ، «البنجاب» فى الغرب ، وتنتج الحبوب ، و«البنغال» فى الشرق ، وتنتج الأرز



«قطب منار» منارة قطب الدين أيبك نيودلهي

والحبوب ، وإن كانت غالبية سكانهما من المسلمين ، ألا أنهما تضمان مناطق شاسعة غالبية سكانها من الهندوك . فهل كان لزاماً على الباكستان أن تطالب بهذه المناطق كجزء لا يتجزأ ، أم تقتصر فى طلبها على المناطق الإسلامية ؟ وكان رأى جناح هو المطالبة بالمجموع ، أى بالمناطق كلها كوحدة كاملة لا تتجزأ ، بما فيها المناطق الهندوكية .

وأخيراً ولدت الباكستان التى نجحوا فى تأسيسها أقل اتساعاً مما كانوا يأملون فيه .

وقد قررت الحكومة البريطانية بعد الحرب الكبرى الثانية عام ١٩٤٥ ، وبعد تولى حزب العمال الحكم ، الوفاء بوعدها ، وأن تمنح الحكم الذاتى للهند . ولكن كانت أمام الحكومة البريطانية مشكلة مستعصية ، إذ لم يكن من السهل تأليف حكومة هندية مؤتلفة ترضى كلاً من حزبى المؤتمر والرابطة الإسلامية فى نفس الوقت .

وقد حاول البريطانيون فى مبدأ الأمر أن يتفادوا تقسيم الهند . فأرسلت الحكومة البريطانية بعثة انتهت إلى اقتراح إنشاء اتحاد ثلاثى (من الإنجليز والهندوك والمسلمين) يسمح بالاحتفاظ بالوحدة ، وأن يرضى المسلمين فى الوقت نفسه ، وذلك عن طريق منح المناطق الإسلامية حكماً ذاتيا .

وقد حاول نائب الملك فى ذاك الوقت ، «اللورد ويفل» ، تأليف حكومة مركزية يساهم فيها الحزبان . ولكن كان الخلاف والتناقض قد بلغ بينهما حد اتهام كل منهما للآخر بسوء القصد والنية .

وكان أن بدأت الأعمال العدوانية فوراً عقب ذلك . فقد أعلنت الرابطة الإسلامية أنها خصصت يوم ١٦ أغسطس ١٩٤٥ ، وأطلقت عليه «يوم العمل

المباشر (Direct Action Day) قامت فيه الجماهير الإسلامية بمظاهرات ضخمة ، وعقدت الاجتماعات السياسية فى جميع أنحاء البلاد ، ألقيت فيها الخطب النارية الاستفزازية .

وأعقبت هذه المظاهرات والاجتماعات اشتباكات دموية بين المسلمين والهندوك ، خرّ على أثرها الآلاف من القتلى والجرحى ، منهم خمسة آلاف فى مدينة كلكتا وحدها . كما شملت أعمال العنف مناطق البنغال الشرقية وبيهار فى الشرق ، والبنجاب فى الغرب . وتكونت عصابات مسلحة من الهندوك والمسلمين والسيخ ، أخذت تنشر الذعر ، وتقوم بالإرهاب والقتل فى هذه المناطق .

وقام الزعيم غاندى على أثر هذه الأعمال بمسيرة على قدميه ، اخترق فيها المناطق التى سادتها القلاقل ، بما فيها القرى النائية المعزولة فى البنغال الشرقية . وكانت أعمال العنف تتوقف على الفور أينما ذهب .

ورأت الحكومة البريطانية أمام تفاقم الوضع وتزايد أعداد القتلى والجرحى ، أن تعجّل فى إجراءات منح الحكم الذاتى . فبعثت باللورد «ماونتباتن» نائب الملك الجديد ، على رأس بعثة مهمتها تحويل السلطة إلى حكومة ائتلافية ، على أن ينتهى منها فى يونيو من عام ١٩٤٨ . أما عن هيكل وتأليف هذه الحكومة فيقرر بالاتفاق مع الهنود .

ولكن اللورد ماونتباتن وجد عند وصوله إلى دلهى فى مارس ١٩٤٧ أن الحالة لم تهدأ ، بل تفاقمت عن ذى قبل ، فرأى أن يعجل فى تاريخ منح الاستقلال إلى شهر أغسطس فى العام نفسه ، أى ١٩٤٧ .

ولكنه بدلاً من أن يفعل ذلك ، وبعد أن تعذر عليه الحصول على اتفاق الحزبين المتنافسين ، نصح بالتقسيم ، وإنشاء دولة الباكستان .

وشروط اتفاق التقسيم وتفصيلاته معقدة للغاية ، ولكن كان الجوهر ينص على أن ولايتى البنغال فى الشرق ، والبنجاب فى الغرب ، تجزأ وتقسم بين الدولتين الجديدتين .

وما كاد التقسيم يتم حتى أعلن حزب المؤتمر الوطنى أنه يعارض فيه . وتبعته فى ذلك الجماعات الهندوكية المحافظة ، مطالبين بالاحتفاظ بالوحدة الوطنية للهند .

ولكن نهرو ، وكان وقتئذ رئيساً للوزارة الانتقالية من عام ١٩٤٦ ، قبل التقسيم وهو يعلن أسفه العميق ، مفضلاً إياه على نشوب الحرب الأهلية التى كانت تهدد البلاد . وأعقب ذلك إعلان استقلال كل من الهند والباكستان فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧ .

وقد رفض غاندى الاشتراك فى احتفالات الاستقلال وقال : «ولماذا كل هذا الفرح والتهليل ؟ إنى لا أرى أمامى إلا أنهاراً من الدماء» .

وقد تحققت رؤيته ؛ فسادت الفوضى العارمة على أثر إعلان الاستقلال فى إقليم البنجاب خاصة . ووقعت فيه المذابح والمجازر بصورة لم يشهد لها التاريخ البشرى مثيلا . قام فيها الهندوك والسيخ بذبح المسلمين ، والمسلمون بذبح الهندوك والسيخ .

وكان الهندوك والسيخ يحاولون فى تلك الفترة استرداد المناطق المنزوعة ، كما كان المسلمون يسعون إلى الاحتفاظ بالمناطق التى أعطيت لهم فى الباكستان .

وكانت جثث القتلى ، التى قدرت بأكثر من نصف مليون قتيل ، تغطى أرض هذا الممر التاريخى الطبيعى ، الذى استعملته الشعوب المتعاقبة منذ فجر التاريخ فى الهجرة من وإلى الهند . وكانت آخرها تلك الهجرة المشئومة .

وبدأ غاندى على أثر قيام هذه المذابح فى الإضراب عن الطعام ، وذلك على أمل التوفيق بين المسلمين والهندوك ، وصمم على عدم إنهائه إلا بعد أن يسود السلام

ربوع الهند .

وبعد أن ساءت حالة غاندى الصحية نتيجة إصراره على الاستمرار فى الصيام ، وجّه المئات من كبار الزعماء الهنود النداءات إلى الطوائف الدينية المتناحرة ، بالكتابة إلى غاندى يعدونه بالكف عن القيام بأعمال العنف ، وصيانة الأرواح والممتلكات ، وكفالة الحرية للأديان . وكان غاندى عند حسن ظنه بهم وكفّ عن إضرابه .

ولكن كان التزمّت والتعصب الدينى عند الهندوك أكبر من أن يكبحه الزعماء الهنود . فكان يثير الهندوك رؤية غاندى وهو يبشر بالتسامح مع المسلمين ، وأن يسمعوه وهو يتلو الآيات القرآنية فى الاجتماعات الدينية الهندوكية ، أوهو يقترح تحويل نصيب من الخزانة العامة لدولة الباكستان . وكان اقتسام الأصول بين الدولتين أحد بنود مشروع ماونتباتن .

فى يوم ٣٠ يناير ١٩٤٨ ، وفى أثناء قيام غاندى بصلوات المساء بمدينة « بونا » جنوبى بومباى ، تقدم منه أحد الهندوك المتعصبين من طبقة المهرات – أعدى أعداء المسلمين – وأرداه قتيلا بثلاث طلقات أصابته فى صدره .

وهكذا مات القديس الذى ظل طوال حياته يقاوم العنف ، بعمل خسيس من أعمال العنف .

وقد خمدت حدة الخلافات بين الطائفتين السياسيتين المتنازعتين على أثر صدمة مقتل غاندى ، ولكنها مع ذلك لم توقف تيار الهجرة المزدوجة . فقد قدر عدد المهاجرين منذ بدء التقسيم حتى نهاية عام ١٩٦٣ . بخمسة عشر مليوناً من المسلمين والهندوك والسيخ ، عبروا الحدود فى الاتجاهين المضادين . تلقت الهند منهم حوالى تسعة ملايين ، والباكستان حوالى ستة ملايين .

والآن ، هل كان تقسيم الهند خطأً جسيماً ، أم كان أمراً محتوماً لا مفر منه؟ أو أن اللورد ماونتباتن قد أخطأ بتسرعه فى تنفيذ مشروعه ؟ هذا ما سوف يناقشه المؤرخون لزمن طويل ، وسوف يجيب عنه التاريخ نفسه فى المدى البعيد .

ولكن من المؤكد الثابت أن هذا التقسيم له أثره العميق على مستقبل وكيان جنوب القارة الأسيوية بأكملها .

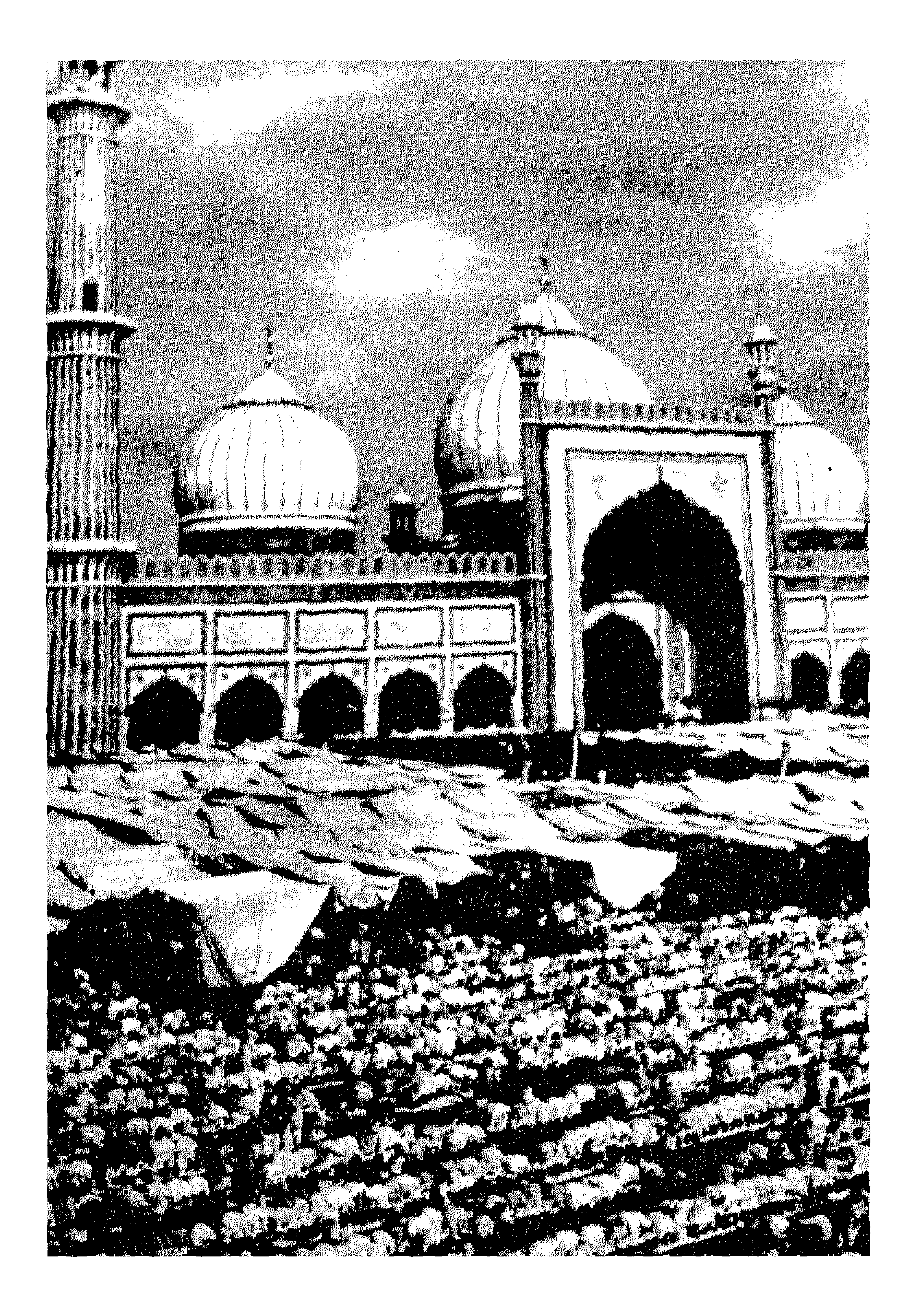
* * *

والأقلية ذات الوزن فى الهند الآن هى الأقلية المسلمة ، مازال باقياً منها ما ينوف على الستين مليوناً - أى عشر سكان البلاد - يتزايدون عاماً بعد عام . وبذلك تلى الهند الباكستان وإندونيسيا فى عدد السكان المسلمين .

ويشكل موقف المحافظين الهندوك تجاه الأقلية المسلمة عاملا حاسماًفى سياسة الهند الداخلية والخارجية على حد سواء . فالحكام الأحرار يخشون من أن سياسة التواؤم والمهادنة التى تتبعها الدولة مع الباكستان قد تؤدى إلى قيام الطوائف الرجعية الهندوكية بأعمال الصدام والعنف ضد المسلمين الهنود . فهم ينظرون إليهم على أنهم بمثابة «طابور خامس» داخل المحيط الهندوكى .

والذين يتصورون أن الهندوك شعب مسالم مهادن ، لا يمكن أن يرقى خيالهم إلى المجازر التى وقعت فى أثناء فترة التقسيم . فكانت القطارات المكتظة بأفواج المسلمين تصل إلى وجهتها بكامل حمولتها ، وهى لا تحمل سوى جثث القتلى المشوهة فى أبشع صورها .

◀ مسجد الجمعية بدلهى القديمة . بناه الإمبراطور المغولى شاه جاهان فى القرن السابع عشر حيث يلتف المسلمون حوله التفاف السوار بالمعصم



وكنت أعمل فى القنصلية المصرية العامة بمدينة بومباى عام ١٩٤٨ ، وسمعت – من بعض المسلمين – من الروايات ما لا يصدقه عقل ، منها – والعهدة على الرواة – أن الهندوك والسيخ كانوا يجبرون الآباء المسلمين على مغادرة القطارات المتجهة إلى الباكستان ، فى أثناء عبورها ولاية البنجاب – معقل شعب السيخ – والتهام أطفالهم بعد طهيهم فى الماء المغلى ، ثم الإجهاز عليهم بعد ذلك !

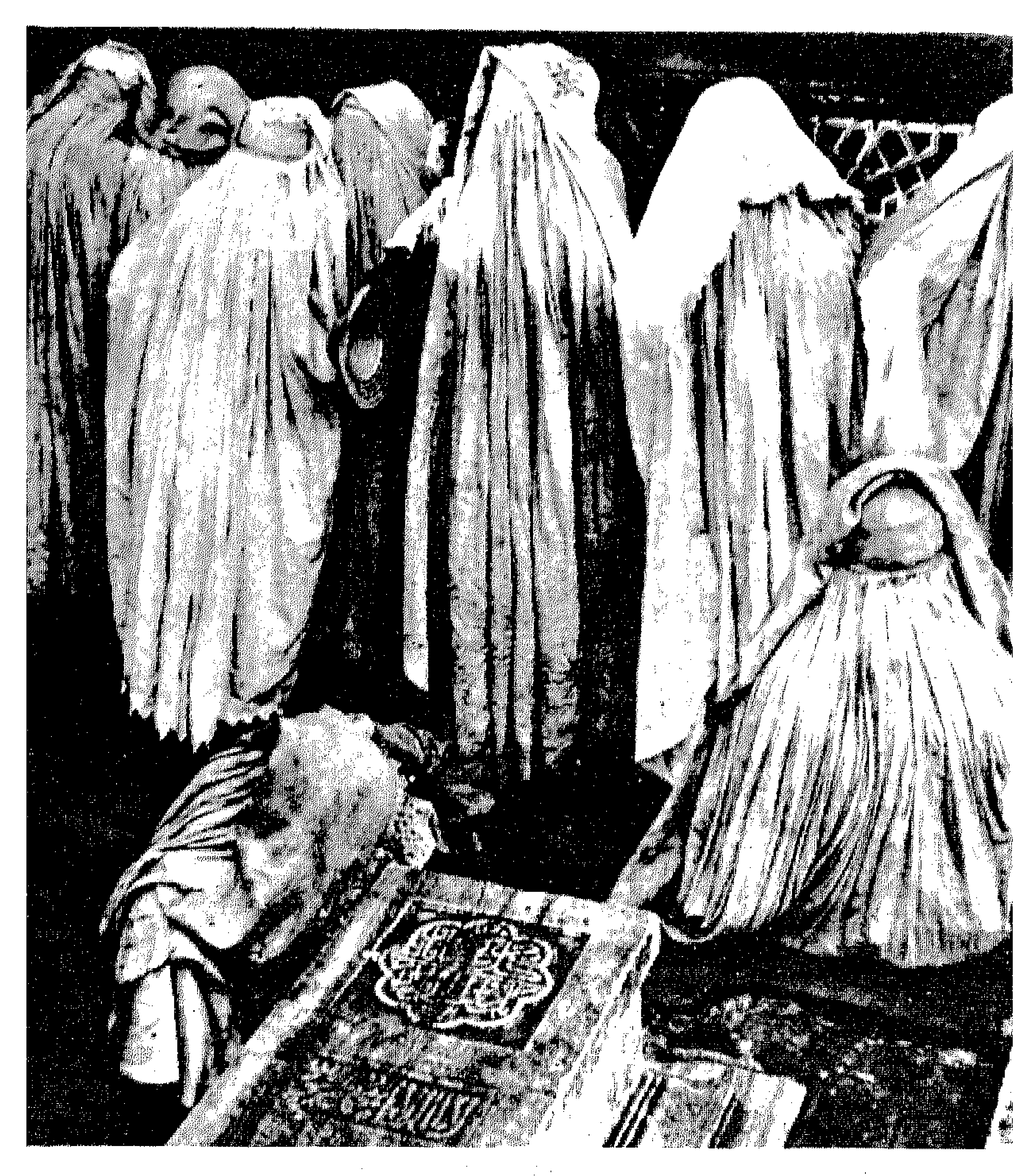
وإن كانت فى مثل هذه الروايات مبالغات غير مقبولة ، إلا أنها إن دلت على شىء فللتدليل على شدة أعمال العنف والوحشية التى صاحبت الصراع الطائفى بين الأكثرية الهندوكية ، والأقلية المسلمة .

أما المجتمع الإسلامى فى الهند ، فهو وإن خضع لتيار تكوين الطبقات ، إلا أنه مع ذلك يظهر تسامحاً ومساواة أكثر مما يظهره المجتمع الهندوكى .

وتحتل سلالات النبى ﷺ ، ومن هم من عصبه – الأسياد والأشراف – والقبائل العربية التى اعتنقت الإسلام على يدى الرسول ﷺ ، والغزاة « الباتان» والمغول ، مركزاً مميزاً فى المجتمع الإسلامى . ويطلقون عليهم طبقة «الأشراف» .

أما سلالة الهندوك الذين ارتدوا عن الهندوكية ودخلوا فى دين الإسلام ، فقد حافظوا على عادة تكوين مجموعات من بينهم ، أشبه ما تكون بالطبقات ، وتمسكوا بالتقاليد الهندوكية الموروثة عن أسلافهم المرتدين . وأهم هذه التقاليد تفضيل الزواج بين الطبقات الواحدة ، ويطلقون على هؤلاء طبقة « الأجلاف» .

ومع ذلك فإن هذه الطبقات ينقصها بعض خواص نظام الطبقات الهندوكية ، وخاصة شعائر التدنيس والنجاسة الناتجة من خلال المعاشرة مع أفراد ينتمون إلى طبقات أخرى ، وهو ما يتعارض مع تعاليم الإسلام من أن جميع الناس سواسية أمام الله .



هنديات مسلمات محجبات فى زيارة لأحد الأضرحة

٢ - المسيحية

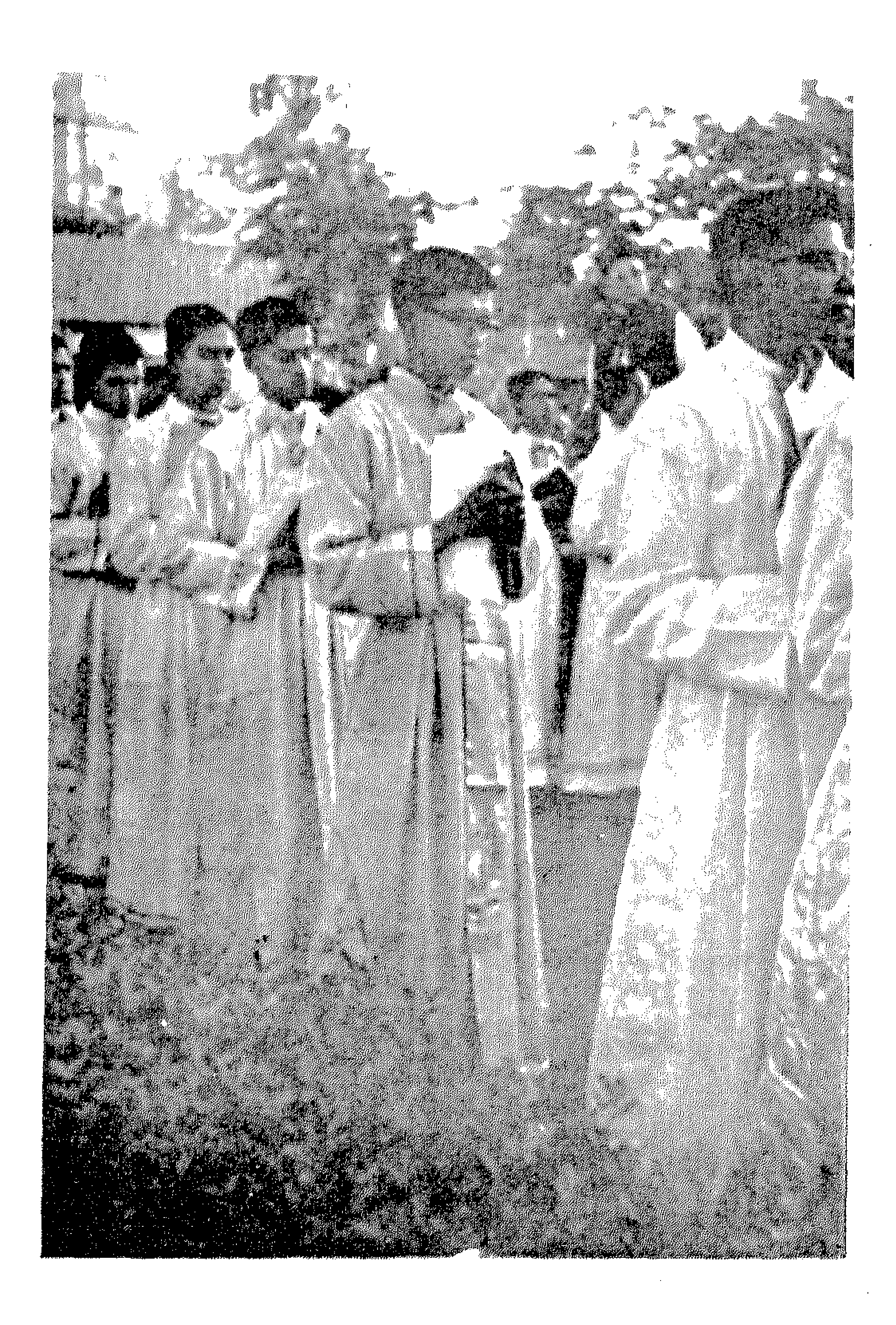
وتأتى الأقلية المسيحية بعد الإسلامية بتعدادها البالغ نحو ثلاثة عشر مليوناً تقريباً .

ومع أنها نسبة لا تتعدى ½ ٪ من مجموع سكان الهند ، إلا أن المسيحيين يمثلون ربع سكان ولاية «كيرالا» فى الجنوب الغربى ، حيث تعتبر المسيحية هناك من أقدم الديانات المسيحية فى العالم . فهى تأسست فى القرن الأول الميلادى ، على يدى القديس توما ، الذى توجه إلى الشرق يبشر بالمسيحية ، فى حين توجه القديس بولص نحو الغرب إلى روما . وإن كان تاريخ الكنيسة نفسها فى كيرالا يرجع إلى القرن السادس عشر فقط .

فهناك إلى جانب المسيحيين السّريان الأوائل ، توجد أفواج أخرى من الهندوك الذين اعتنقوا الكاثوليكية التى بشر بها البرتغاليون ، والمبشرون الفرنسيون فى القرن السادس عشر ، والأنجليكان والبروتستانت بعد عام ١٨١٣ .

وتضم الجالية الهندية المسيحية فى الجنوب بين أتباعها الكثير من الشخصيات ذات القيمة الأدبية والثقافية العالية التى تحظى بالتقدير والإعجاب فى كل أنحاء الهند . على حين ينتمى المسيحيون فى أنحاء الهند الأخرى إلى طبقات اعتنقت المسيحية فراراً من القيود التى يفرضها عليها نظام الطبقات الدنيا التى تنتمى إليها ، كطبقة المنبوذين ، أو سكان القبائل فى الغابات والأحراش والتلال .

وحدث فى عام ١٩٥٤ أن اتهمت ولاية «ماديا براديش» المبشرين الأجانب بالسعى إلى إنشاء دولة مسيحية مستقلة داخل الهند ، وكان على أثر ذلك أن اتخذت الحكومة المركزية الإجراءات المشددة لمنع الإرساليات التبشيرية من دخول الهند .



ونسبة التعليم فى ولاية كيرالا هى أعلى النسب فى جميع الولايات الهندية ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى جهود الإرساليات التبشيرية فى إنشاء المعاهد والمدارس المفتوحة للدراسة أمام جميع الأديان .

ولكن من سوء الحظ أن إمكانيات التوظف فى هذه الولاية لا تتناسب مع انتشار التعليم ، نظراً لكثافة السكان فيها ، مما أدى إلى تفشى البطالة بين الخريجين . فكان من أثر ذلك أن استغل الحزب الشيوعى القوى تذمر الطبقات المتعلمة العاطلة فى الوصول إلى الحكم .

ولا تخلو المسيحية فى تلك الولاية من التأثر بنظام الطبقات الهندوكى المتأصل ، فلا تؤم الطبقات العليا فيها من المسيحيين كنائس الطبقات الدنيا .

◀ السيخ فى احتفال دينى أمام معبدهم الرئيسى «سيس جانج» بدلهى القديمة



٣ – السيخية

ويكوّن السيخ الأقلية الدينية الثالثة ، وعددهم لا يتجاوز عشرة ملايين ، وتاريخهم عجيب غريب.

بدءوا فى أول الأمر كطبقة مسالمة ، ولكنهم ما لبثوا أن تحولوا بعد ذلك إلى مجموعة محاربة متماسكة ، نتيجة لمقاومتهم للفتح المغولى لشمال الهند ، مع أن عقيدتهم تشترك فى الكثير مع المعتقدات الإسلامية والهندوكية . ولو أن خلافهم يشتد الآن مع الهندوك بوجه خاص ، ولكنه خلاف سياسى فى المقام الأول .

ومؤسس الديانة السيخية هو «ناناك» ١٤٦٩–١٥٣٩» ، الذى ولد من أبوين

هندوكيين فى مقاطعة البنجاب ، وكانت فى هذا الوقت تحت السيطرة الإسلامية.

بدأ ناناك فى دراسة دين الغزاة ليستخرج منه بعض العناصر التى قد تسمح بالتوفيق بينه وبين دينه ، مع استبعاد بعض المظاهر فى الديانتين الإسلامية والهندوكية .

وفى هذا يقول : « لا يقتصر الدين على الكلمات فقط . والرجل الصالح هو الذى يعتقد أن كل الناس سواسية » .

« لا يقتصر الدين فقط على الحج وزيارة المقابر والمحارق ، أو الجلوس والتأمل »

« لا يشمل الدين ارتكاب الخطأ والزلل فى الأراضى الأجنبية ، أو الاغتسال فى أماكن الحج » .

« احتفظ بطهارتك وسط دنس العالم ، وبذلك سوف تهتدى إلى طريق الله » .

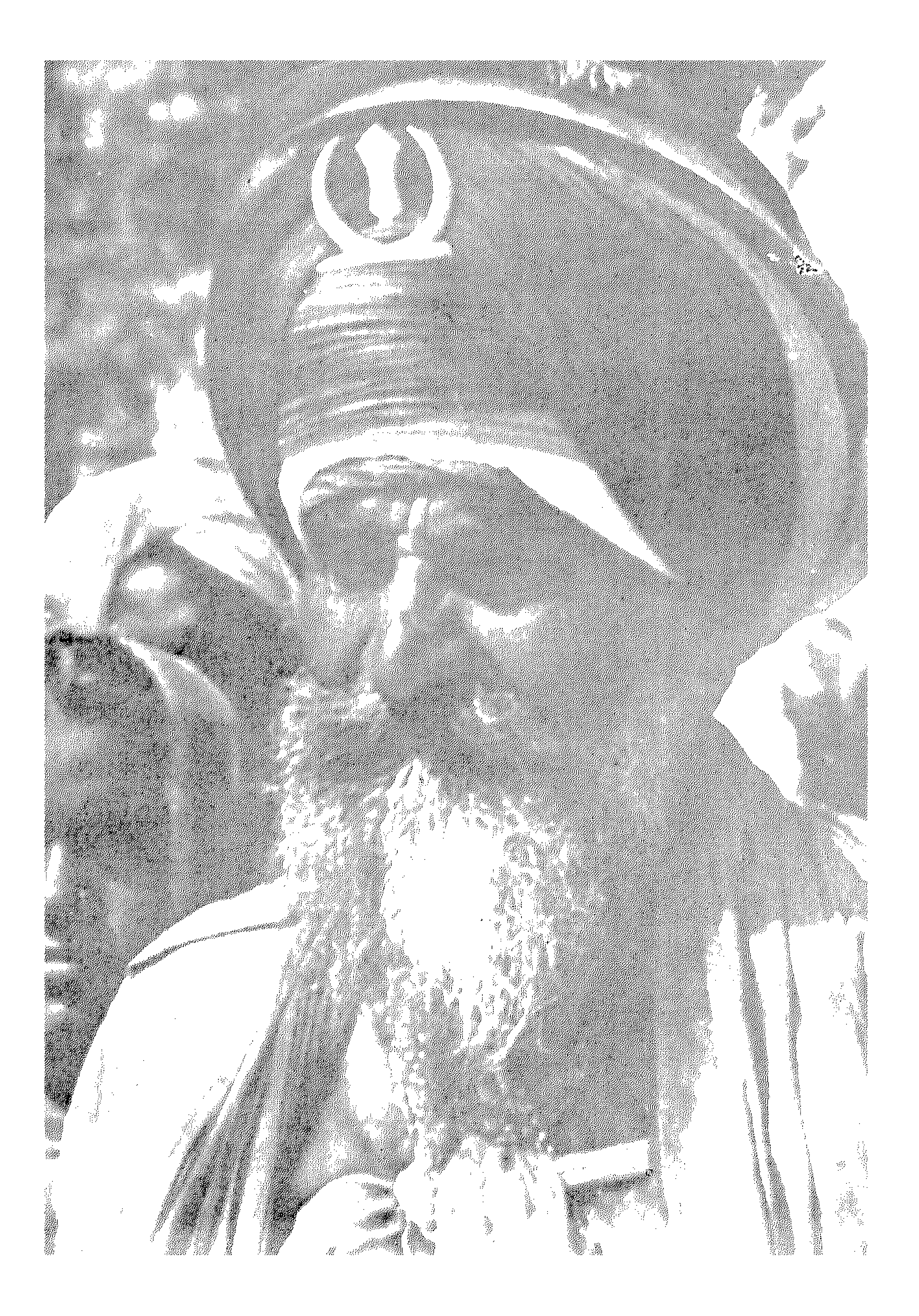
كما يقول بأن الله القدير لا يسمح بوجود التمييز بين المسلمين والهندوك.

وأتباع هذه العقيدة يطلق عليهم « سيخ » — أى تلميذ باللغة السنسكريتية — وهذا من شأنه أن يعطى لقب « جورو » — أى الأستاذ — لناناك . فيطلق عليه « جورو ناناك » ، هو وخلفاؤه التسعة .

وتحوّل شعب « التلاميذ » بمرور الزمن إلى طائفة تجمع بينها اللغة ، والثقافة ، والعادات ، والقوانين .

وقد أعطى الجورو الخامس « جورو آرجون » كتابهم المقدس المسمى « آدى

سيخى من طائفة « التمساح »
... وعمامة وزنها خمسة كيلو جرامات



جرانت» ، متضمناً نصوصاً إسلامية وهندوكية ، جمعها من كتابات وتعاليم الجورو الأول ناناك.

ووضع هذا الكتاب فى «المعبد الذهبى» الذى شيده وسط بركة كبيرة فى مدينة «أمر تسار» ، وهى المدينة التى أنشأها والده الجورو الرابع «رام داس» ، وتعتبر هذه المدينة مكة شعب السيخ .

وتقول الأساطير إن «رام داس» اختار هذا الموقع عام ١٥٧٧ ، عندما شاهد فيه بركة عطرة الرائحة ، يحطّ عليها عصفور مكسور الجناح . . فما لبث أن طار ! كما يقال إن الغربان تتحول فيها إلى يمامات بيضاء ! وإن ماءها يشفى الأبرص ، وغير ذلك من المعجزات . أما الآن فيتطهر الحجاج السيخ بمائها المقدس تبركاً .

ويقع بداخل المعبد الذهبى الهيكل المرصع بالجواهر النفيسة ، ولا يحوى غير كتابهم المقدس ، يطوف الحجاج حوله وهم يستمعون إلى التلاوات المنغمة التى لم تتوقف لحظة ، ليلا أو نهاراً ، منذ أربعمائة عام ! ثم يتناولون «العشاء الربانى» من «طشت» كبير يفيض بالسمن السائل الذى تعوم فيه كتل الدقيق «السيموليتا» .

ويقع داخل المعبد أكبر مطبخ فى العالم ، يطعمون فيه كل يوم عشرة آلاف جائع بالمجان ، لا يفرقون بين جنس أو دين أو لون .

وتقطن بالقرب من مدينة أمرتسار ، طائفة ال «نيهانج» - أى التمساح ! - وهى تضم سلالة بقايا جيش السيخ الذين ينعون حتى الآن على الإنجليز تقويضهم لإمبراطوريتهم . ومازالوا يرتدون ملابس القرن الثامن عشر ، تزينها عمامة ضخمة ، يلتف حولها طوق ثقيل من الحديد ، وتزن خمسة كيلو جرامات !

والجورو آرجون هو الشهيد الأول لطائفة السيخ ، أعدمه الإمبراطور المسلم «جاهانجير» عام ١٦٠٦ وعلى أثر إعدامه جمع خليفته جيشاً صغيراً لمقاومة المغول

أما الجورو التاسع فقد أطاح الإمبراطور المسلم «أورنجزيب» برأسه فى عام ١٦٧٥ ، لرفضه اعتناق الإسلام .

وقد أسس ابنه الجورو «جوفند» طائفة جديدة للسيخ أسماها «الأطهار» - Khalsa - وهم كل من يحمل الآن لقب «سنج» - Singh - وتعنى أسد .

ومن تعاليم السيخ الشرب جماعة من إناء واحد ، ودقة مراعاة القواعد الخمس ، ويطلقون عليها حرف K - وهى :

(١) عدم قص شعر الرأس واللحية مدى الحياة (٢) ارتداء «كلسون» قصير ! (٣) وضع سوار معدنى فى المعصم مدى الحياة (٤) التحصّن بخنجر أو سيف صغير رمزى (٥) وضع مشط فى شعر الرأس .

أما عماماتهم المميزة الضخمة ذات الألوان البراقة الزاهية ، فهى عَلَم عليهم فى كل مكان ، ويحتاج لفّها على رءوسهم إلى خبرة وحنكة ودراية يصعب على الغريب محاكاتها . وقد حاولت هذه التجربة بنفسى مراراً فى أثناء وجودى بالهند فأخفقت .

واختتمت ذرية أئمة السيخ عند الجورو التاسع ، حينما قُتل هو وأولاده جميعاً خلال حروبهم المتواصلة مع جيوش المغول الإسلامية .

ولجأ شعب السيخ عقب ذلك إلى سفوح سلسلة جبال الهملايا البعيدة المنال . ثم هبطوا بعد ذلك إلى سهول البنجاب حيث أسسوا مملكة برئاسة «رانجيت سنج» . وبموته ضم الإنجليز مملكته إلى الحكم البريطانى بعد حربين طاحنتين فى عامى ١٨٤٥ و ١٨٤٨ .

ويتجمع السيخ فى شمال الهند ، وخاصة فى ولاية البنجاب . وكان الكثير منهم يعيشون قبل التقسيم فى المنطقة التى تحتلها الآن دولة الباكستان .

٤ - البارسية

والطائفة «البارسية» هى أقل الطوائف عدداً، فهى لا تتجاوز المائتى ألف نسمة، منهم حوالى السبعين أو الثمانين ألف يقطنون مدينة بومباى وحدها. وليس للبارسيين دور هام يذكر فى سياسة الهند كالأقليات الأخرى، نظراً لقلة عددهم، وإن كان لهم دور خطير فى مركز الهند الاقتصادى.

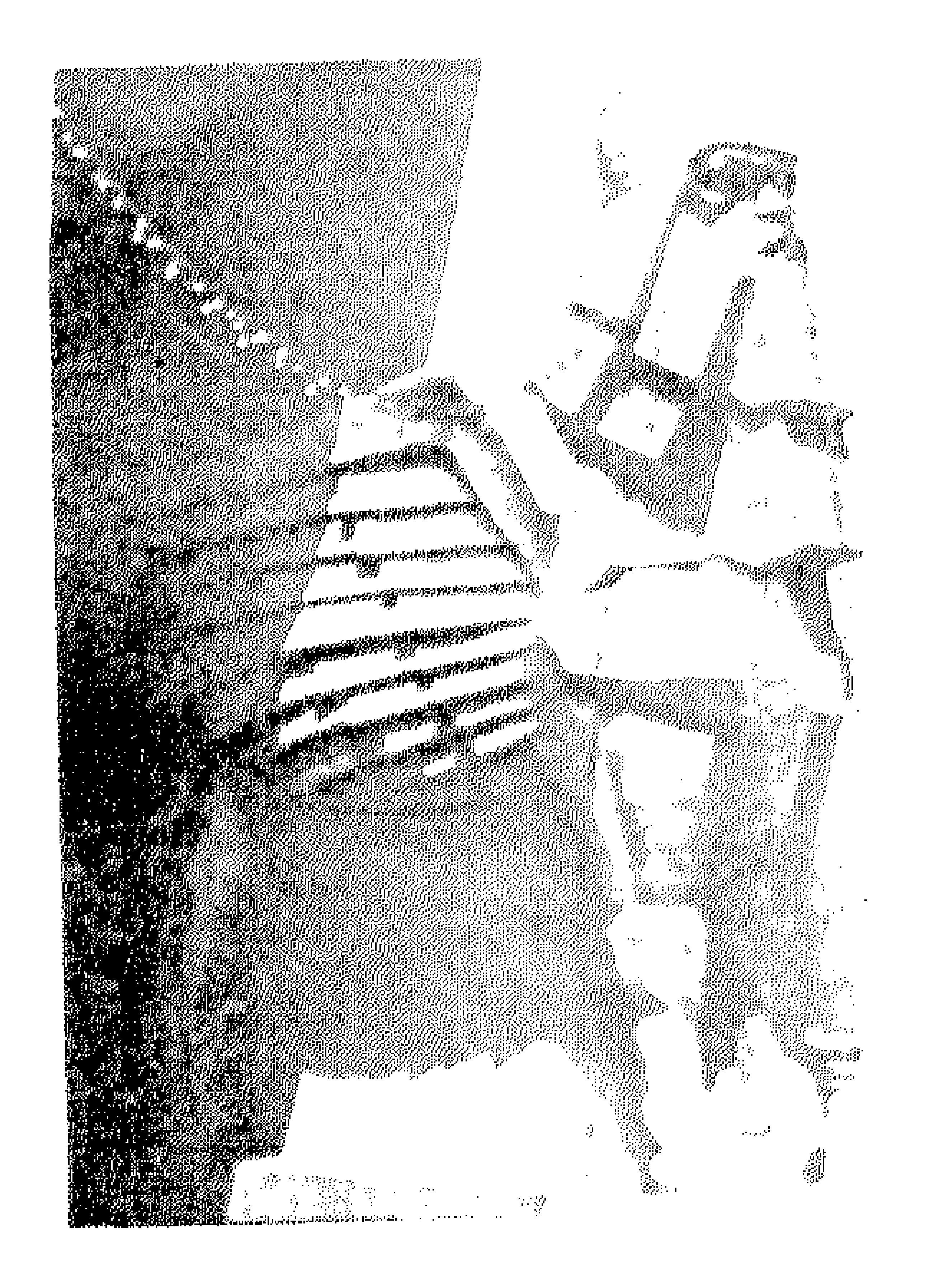
والبارسيون هم سلالة أتباع «زرادشت»، فروا من فارس أمام الغزو الإسلامى فى القرن السابع والثامن، واستوطنوا الساحل الغربى للهند، المعروف بشاطئ «ملابار».

وهم يعبدون النار، ويقدسون عناصر الطبيعة. ويتأسس دينهم على معارضة الخير للشر، أو النور للظلام. وعلى وجوب القتال مع قوات «أرموزد» — الخير — ضد قوات «أهريمان» — الشر — بغرض عدم تدنيس العناصر الرئيسية للطبيعة وهى: الأرض، والنار، والماء.

ولذلك فهم لا يدفنون موتاهم فى باطن الأرض، أو يلقونها فى البحر، أو يحرقونها كالهندوك. فالأرض والماء والنار — وهى قدس الأقداس — كلها عناصر طاهرة يتفادون تدنيسها. فيأتون بالميت بعد تكفينه، ويضعونه على سطح برج عال، يقال له برج الصمت [1] لا تتطاول إليه الأنظار. ويتركونه طعاماً سائغاً للعقبان، حتى لا يبقى منه غير الهيكل العظمى.

---

(١) أبراج الصمت مشروحة بالتفصيل فى كتاب «ذكريات دبلوماسى غير مدونة» لنفس المؤلف، ودار المعارف للنشر.



تمثال على واجهة معبد النار البارسى

... وبول الثور للعروسين !

وهم لا يتقيدون بطعام معين ، ولا يميِّزون بين الطبقات . ومن عاداتهم عند الزواج أن يشرب العروسان بول الثور تيمناً وتبركاً !

والبارسية كالطائفة « الجانية » يعمل رجالها فى المال والتجارة . وتعتبر طائفتهم الصغيرة أقوى الطوائف فى الهند وأعتاها .

وكانوا آخر من اتصل بالاحتلال البريطانى فى بومباى .

الديانتان المنشقتان على الهندوكية

بزغت الديانتان « الجانية » و « البوذية » على أرض الهند بين الطبقات المثقفة القديمة . وإن كان البراهمة يعتبرونها من الطبقات غير السامية ، وينظرون إليها على أنها قاعدة للهرطقة والبدع المكروهة ، يحاربونها ويلعنونها . حتى يقال عن معتنقيها : إنه من الأسلم أن تقابل نمراً فى غابة على أن تقابل هرطوقيًّا مثلهم . فالنمر يفنى الجسد ، أما هؤلاء فيفنون الروح !

وللديانتين أهمية تاريخية عظمى ، لأنهما نجحتا فى كسب الاعتراف بهما كمنافستين للهندوكية . فانتشرت البوذية فى جميع أنحاء الهند . أما الجانية فاقتصر انتشارها على بعض المناطق . ولكنهما كانتا مع ذلك نقطتى تحول تاريخيتين . فمع أن البوذية اختفت من الهند فيما بعد ، إلا أنها تطورت إلى ديانة عالمية ، فرضت نفوذها الثقافى الثورى من الهند وسيلان ، عبر التبت وسيبريا ، إلى الصين وكوريا واليابان .

أما الجانية فظلت مقصورة أساساً على بعض الأقطار الهندية ، وانكمشت حتى أصبحت طبقة صغيرة محدودة ، يعتبرها الهندوك كواحدة من بين طوائفهم المتعددة . وأهميتها نابعة من كونها تقتصر على طبقة التجار بصفة خاصة ، فهى تقابل فى الهند تماماً طائفة اليهود فى البلاد الأخرى .

ومن بين هاتين الديانتين المتنافستين ، تعتبر الجانية بنوع خاص ديانة هندية صميمة .

(١) البوذية

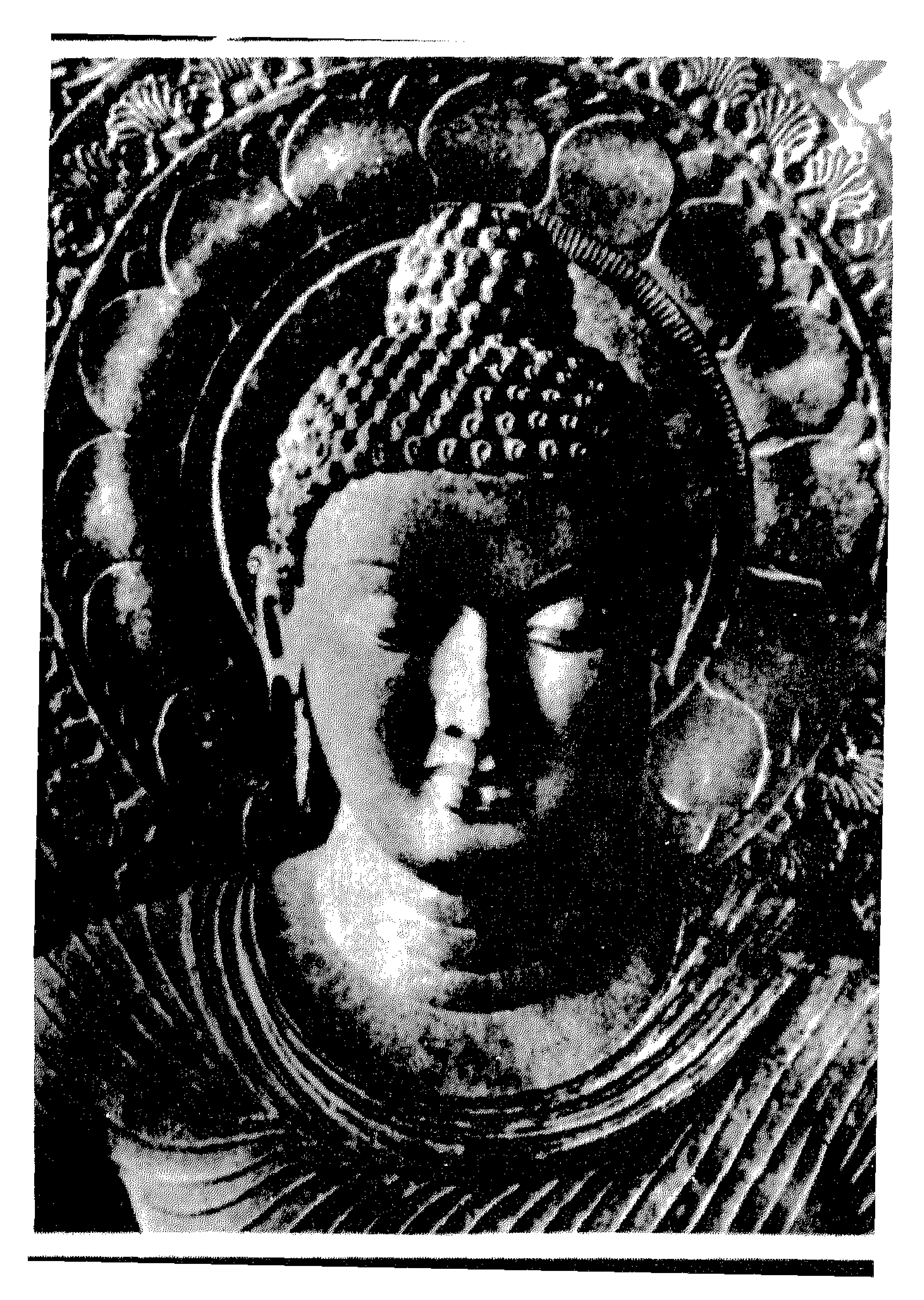
البوذية القديمة

نبدأ بالديانة البوذية لا لأنها أقدم ، ولكن لأنها استقلت بوجودها قبل غيرها من الديانات المنشقة عن الهندوكية ، ولأنها تشعبت رأساً منها فى حين تطعمت الديانات المنافسة لها بالهندوكية كالنباتات المتطفلة .

وهناك وجهان للبوذية ، الوجه الأول أنها ظاهرة هندوكية ، ونتاج طبيعى للتاريخ والوضع الاجتماعى الذى شاهد ولادتها . ومن الناحية الأخرى فهى قد أثبتت نفسها منذ البداية كدين مستقل، يتنفس بروح جديدة ، وبشخصية مؤسسها الجبارة التى تركت لهذا الدين أثراً لا يمحى .

وبهذا المعنى فالبوذية من عمل بوذا . وينظر إليه كمحمد للإسلام أوكعيسى للمسيحية

والمؤلفات الدينية المقدسة للبوذية حفظت أولاً باللغة السنسكريتية فى الشمال .



وبلغة « البالى » فى الجنوب . كما أنها نسخت بقدر معقول من الأمانة فى عصر لاحق إلى غالبية اللغات الآسيوية .

وتحمل مجموعة الكتب المقدسة البوذية اسم « تريبيتياكا » أى السلال الثلاث ، لأنها تتكون من ثلاث مجموعات . المجموعة الأولى (فينايا) — أى النظام — وهى خاصة باحترام الرهبان . والثانية (سوترا)— أو مواعظ بوذا ، وهى تحتوى على عرض عام للمبادئ والتعاليم والعقائد . والجزء الثالث (أبيدارما) أو العلوم النظرية للنظام .

ولا توجد منها نسخة واحدة مكتوبة باللغة الأصلية للبوذية ، وهى اللغة « الماجادّية »— نسبة إلى مملكة ماجادًا فى شمال الهند— بل مخطوطة باللغة « البالية » ، وتُقرأ فى جزيرة سيلان ، وفى الهند فيما وراء نهر الجانج . وهناك نسخة أخرى باللغة السنسكريتية أكتشفت حديثاً فى مملكة نيبال .

وتبعاً لاستعمال تراجم اللغة السنسكريتية أو البالية إلى اللغات الأجنبية ،— وكل واحدة منها لغة مقدسة— انقسم البوذيون إلى شماليين وجنوبيين . فالبوذيون الجنوبيون ينتمون إلى سيلان ، وبورما وتايلاند . أما الشماليون فينتمون إلى نيبال ، والتبت ، والصين ، وكوريا ، واليابان ، والهند الصينية ، وجاوا ، وسومطرة .

وحتى الآن ليس هناك ما يكشف لنا عن حياة الرجل العجيب الذى وضع الأساس لمذهب دينى اعتنقه أكثر من ثلث سكان العالم [٢] ، سوى قصص أسطورية أفسدتها العناصر الخرافية .

ومؤسس البوذية هو « سيدارتا أو تشاكياموني » من عائلة « جوتاما » وكانت فرعاً ملكياً من طائفة « التشاكيا »— ومن هنا جاء اسمه « تشاكياموني »— من قبائل

(١) تقول أحدث الإحصاءات إن أكثر من ٤٧٠ مليون نسمة يتبعون المذهب البوذى .

الراجبوت النبلاء المحاربين ، التي كانت فى هذا الوقت تستوطن ضفاف رافد من نهر «جوجرا» ، وعلى بعد ١٣٧ ميلاً شمالى مدينة بنارس (أو فاراناسى كما يطلق عليها أحياناً) .

وقد هجر تشاكيامونى أبويه وزوجته وابنه الوحيد حديث الولادة ، عندما بلغ التاسعة والعشرين من عمره ، وصار «سانياسى» – أى ناسكاً .

وبعد سبع سنوات من التأمل والصراعات الداخلية ، أعلن أنه توصل إلى «الحقيقة النقية» ، واتخذ لنفسه لقب «بوذا» (أى المستنير أو المتيقظ) . ثم أخذ يبشر بتعاليمه خلال أربعة وأربعين عاماً على ضفتى نهر الجانج فى ولايتى بنارس وبيهار . ودخل «النرفانا»[1] عندما بلغ الثمانين من عمره .

أما تاريخ وفاته فمن المتعذر تحديده بدقة ، وإن كان يُظن أن العام السابع والثلاثين من حكم الملك «أشوكا» يوافق العام ٢٥٧ من وفاة بوذا .

وقد أصاب التغيير كثيراً من تعاليم بوذا على مر الزمن . فالتعاليم التى كان يحتمل أن نجد فيها صدى كلمته ، كلها مدونة باللغة البالية الغريبة على بوذا . والبالية هى أحدث من اللهجات التى دوّن بها الملك أشوكا تسجيلاته ونقوشه على اللوحات الحجرية والصخور عن البوذية فى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد . ولذا فيمكن اعتبار أن تعاليم بوذا الأصلية قد فقدت . صحيح قد تحتوى الكتب الدينية البوذية على بعض الشرر ، ولكنها تخلو من اللهب !

ولم يكن بوذا ليعترف بالتمييز بين طبقات تلاميذه ومريديه . وكانت تعاليمه توصى بأن قيمة الفرد إنما ترتبط بمعرفته بالله ، وبقوته المعنوية . وأن هذه القوة لا تعتمد

---

(١) «النرفانا» هى حالة خمود الشهوات الجسدية ، وسعادة النفس فى الخلود ، أى الراحة الأبدية . وكان ذلك فى المدة ما بين عام ٤٨٢ و ٤٧٢ ق . م .

على الطبقة ، أو إقامة الشعائر وتقديم الضحايا ، بل على النية الحسنة والمجهود الشخصى . كما أدخل تعاليم المساواة التى تنادى بأن البشر سواء أمام الله .

وكان بوذا يشارك المنبوذين طعامهم . وتقول الأساطير إن وفاته جاءت على إثر إصابته بسوء هضم نتيجة تناوله معهم لحم خنزير ملوث .

وبالرغم من أن تعاليم بوذا الجديدة كانت تعتبر ثورية فى هذا العصر ، إلا أنها لاقت حظوة من الفئات الدنيا ، وارتدت طبقات بأكملها عن الديانة الهندوكية ، ودخلت فى الديانة البوذية . ولكن لم يكن لهذا الهجوم والتهديد فى واقع الأمر أثر فى زعزعة نظام الطبقات الهندوكى . بل أتى لها بنتيجة عكسية ، وهى خلق طبقات وطوائف جديدة .

وتتميز تعاليم بوذا بمعارضتها للإسلام . وهى ديانة بعيدة كل البعد عن السياسة بل هى ضدها . أو بتعبير أدق ، هى لا تعدو عن كونها «تكنولوجيا» دينية لنظام طائفة من الرهبان المتعلمين المدربين المتسولين الجوالين ! وهى ككل الفلسفات الهندية تعتبر «دين الخلاص» . هذا إذا جاز إطلاقى لفظة «دين» على حركة فلسفية ، لا ربّ لها ولا عبادة . أو بالأصح هى فلسفة دينية لا تكترث كلية بوجود الإله .

والخلاص عندهم هو عمل شخصى بحت يخص الفرد ، بلا حاجة إلى الالتجاء أو الاستنجاد بالإله المنقذ . وليست لهم صلاة معينة . كما يجهلون معنى الصفح الدينى والمغفرة ، أو القضاء والقدر . ويعتقدون أن قَدَر الإنسان النهائى يتوقف كله على سلوكه الشخصى الحر .

ولم يضع بوذا فى حياته صورة أو شكلاً معيّناً للنظام البوذى كما هو معروف اليوم . بل تم ذلك بعد وفاته . فكان لابد من إيجاد علامة تميز الراهب البوذى عن

غيره . كحلاقة شعر الرأس بالموسى ، والالتحاف بإزار أصفر اللون ، وهى تشبه فى هذا ملابس الإحرام عند المسلمين .

ولم يرد فى وصاياهم العشر ما يؤيد الإيحاء التقشفى السلبى الذى يتخذونه تجاه جمع المال والثروة . بل قيدتهم بالوصايا الخمس الشرعية الآتية : الامتناع عن القتل ، والسرقة ، والكذب ، والزنا ، والخمر .

أما الذين يتطلع منهم إلى سلك الرهبنة ، فعليه فوق ذلك اتباع الوصايا الخمس الباقية وهى : الامتناع عن الطعام أكثر من مرة واحدة فى اليوم ، أو الانغماس فى الملذات الدنيوية ، أو استعمال الزينة ولبس المجوهرات ، أو النوم على فراش وثير ، أو قبول الهدايا النقدية .

وهناك بعض الحرف المعينة مما كانت تحرم على البوذيين العلمانيين (أى الذين يسكنون المنازل) ، بخلاف الرهبان الذين يعيشون حياة التشرد الدائم ، وهى الإتجار فى الأسلحة ، وتجارة القوافل– وهى تجارة مشبوهة فى كل الأديان الهندوكية– وتجارة الرقيق التى يعتبرونها من التجارات الخطرة أخلاقياً وجنسياً ، والجزارة التى تعارض عقيدة عدم العنف (أهمسا) . وإن كان يسمح للمستقيمين منهم ذوى الأخلاق الحميدة باحتراف هذه المهن استثناءً !

ومع ذلك بالرغم من أن مهنة الفلاحة– وخاصة حرث الأرض– المحرمة عليهم [1] لا تمنع الراهب منهم من قبول الصدقات فى صورة منتجات زراعية .

ويعتقد البوذيون أنه لا يمكن للإنسان الخلاص من عجلة الحياة الأبدية التى تتجدد بالتجسيد إلى ما لانهاية ، إلا إذا كف عن «التعطش» الذى يربطه بهذا

---

(١) وذلك لعدم إمكان تفادى قتل أو إيذاء المخلوقات الحية ، تلك المخلوقات التى تكون مجتمعاً واحداً مع البشر فى الدورة الأبدية للولادة الثانية (أى التجسيد وتناسخ الأرواح) .

العالم المملوء بالنقائص ، ومقاومته للرغبة الملحة فى البقاء على قيد الحياة .

ويتعذر مثل هذا الخلاص بطبيعة الحال أن يكون فى متناول الجميع ، فهو مقصور على «الشريد» – أى من لا مسكن له – واختصت هذه الطائفة بالتلاميذ والأتباع الجوالة الهائمين الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم «بيكشو» ، أى الرهبان .

أما فئة «ساكنى البيوت» فهى قد وجدت فقط بهدف إعالة الراهب البوذى الشريد المتسول ، الذى يبتغى الوصول إلى حالة السمو الروحانى ، حتى ينالها .

فالراهب البوذى الشريد يهيم على وجهه فى طول البلاد وعرضها ، لا يملك شيئاً ، ولا عمل له ، يتعفف عن الشهوات والملذات الدنيوية : الجنس ، والخمر ، والغناء ، والرقص . يمارس النباتية ، ويمتنع عن أكل التوابل والملح والعسل . يتجول من باب إلى باب يتسول فى صمت . أما ما تبقى له من وقت فيقضيه فى التفكير والتأمل .

وتقديم هذه الصدقات والحسنات والمعونات المادية يقع على عاتق العلمانيين منهم . ومثل هذه الأفعال تعتبر أقصى ما يطمع فيه العلمانى من جزاء ، وما يصبو إليه من شرف !

وإذا رفض الراهب هذه الصدقة لأى سبب من الأسباب ، فإنه يقلب طاسته السوداء التى يتسول فيها إلى أسفل . وهذا هو الجزاء الرادع الوحيد الذى يرهبه البوذى العلمانى ويتحاشاه .

والبيكشو يختلف عن الراهب البرهمى . فهو ليس صانع معجزات ، أو وسيطاً بين الإنسان والإله . إنما هو تائب نادم فى المقام الأول ، وبعد ذلك إذا أمكنه فيكون كاتباً ، وواعظاً ، وموجهاً للضمائر ، ومعلماً للدين . وفى بعض الأوقات مبشراً من الطبقة الأولى . وهو متواضع ذليل . لا يملك شيئاً ، ولا عائلة له ، ولا

مصالح له فى هذه الدنيا ، إلا ما كان منها يخص نظامه الدينى . يذهب إلى حيث يرسله رؤساؤه .

ولو أن البيكشو أخذ على نفسه عهداً بالفقر والعيش على الصدقة ، إلا أن النظام البوذى نفسه غنى بممتلكاته من قديم الزمن ، تأتيه من تلقى التبرعات ومنها الأراضى ، منذ أن كان بوذا حيًّا ، حتى هذه اللحظة !

وعلى عكس النظام البرهمى الذى يوزع الهدايا والتبرعات على الأفراد ، وحتى إذا قدمت هذه التبرعات إلى الجمعيات فهى توزع على أفرادها ، فالمؤسسات البوذية ظلت متماسكة لا تتجزأ . فثرواتها تتراكم وتستعمل فى سبيل المنفعة العامة للطائفة . وهكذا كلما زادت ثروة البوذية نمت وعلت قيمتها .

فالبوذية فى حاجة إلى الأديرة الكثيرة الواسعة لتأوى فيالق رهبانها . ونصب تذكارية لتخليد البقع المقدسة التى يُظن أن المعلّم (بوذا) والقديسين (وعددهم أربعة وعشرون) قد حضروا إليها . والصروح الضخمة الغنية بزخارفها للاحتفاظ بها وبمخلفاتهم الأثرية . وبمعابد لوضع تماثيلهم وصورهم .

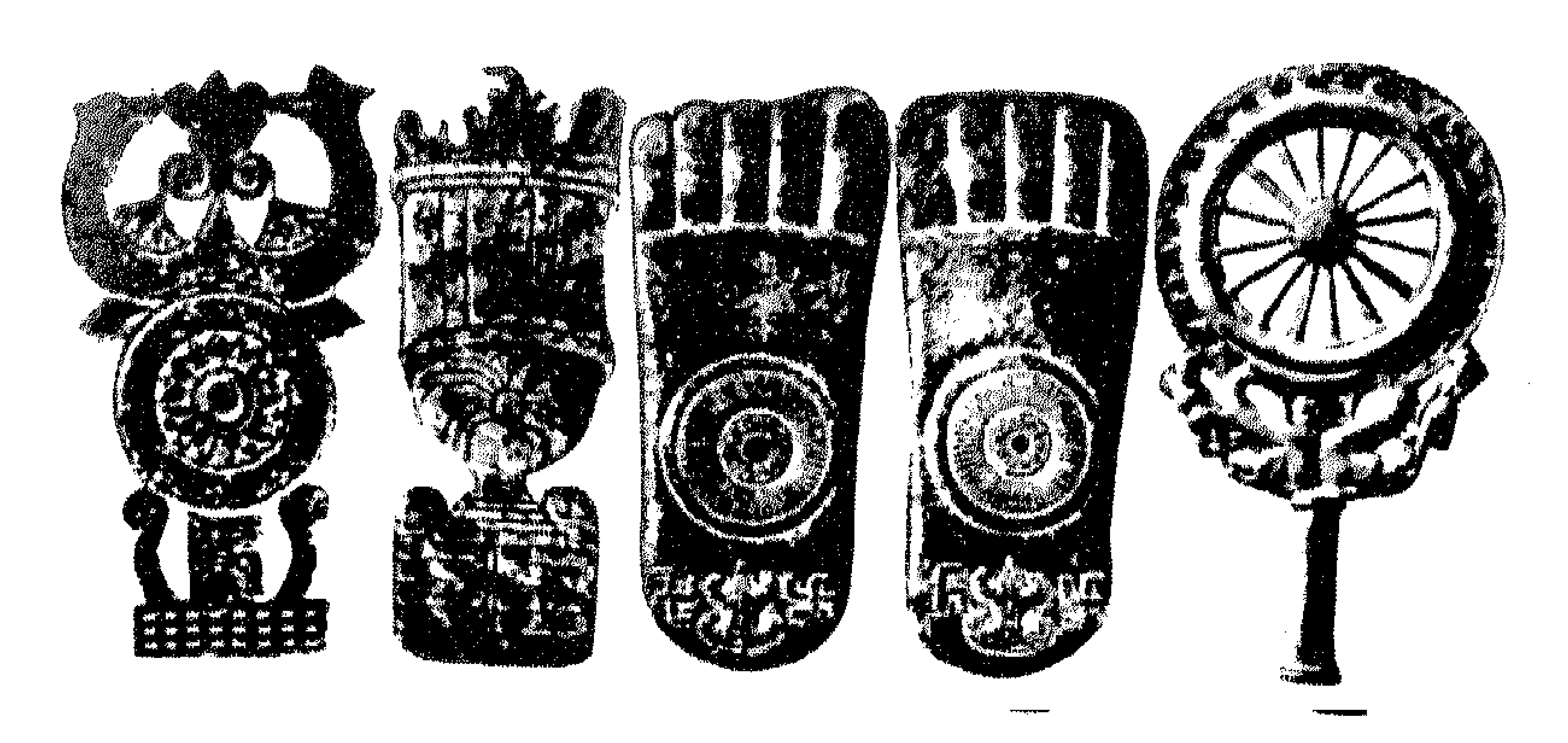
ومع كل ذلك فقد ظلت العبادة بسيطة ، فهى تتمثل فى شعائر الإيمان والولاء ، وتقديم الأزهار والاحتفاظ بمصابيح مشتعلة أمام صورة أو هيكل بوذا [1]

أما الطراز نفسه فكان فاخراً ، مما يدعو إلى الاعتقاد بأن هؤلاء المتسولين هم المشيدون الأوائل فى الهند .

فأقدم الخرائب الضخمة التى نقابلها فى الهند هى ركام وأكداس شيدتها أيدى

---

(١) ظهرت عبادة التماثيل فى المعابد البوذية فى تاريخ حديث ، وكانت هذه العبادة تقتصر فى بادئ الأمر على رموز منها «عجلة القانون» ، والشجرة «بودى» – وهى الشجرة التى جلس تحتها بوذا – وعلى الخصوص بناء له شكل قبة يقال له «ستوبا» .



بعض رموز البوذية . . وأهمها «عجلة القانون» فى أقصى اليمين

هؤلاء المتسولين . كما نجد طابعهم المميز فى جميع المعابد الهندوكية الكبرى ، فى «ماتورا» وفى البنجاب ، وفى وادى كابول . كما نجدها متناثرة فى متاحف كلكتا ولاهور ، وفى متحف الهند . وفى كهوف «أجانتا» – ويرجع تاريخها إلى القرن السادس ، وفى المعابد المبنية تحت الأرض . (١)

البوذية الحديثة فى الهند

والطائفة البوذية فى الهند لا تتعدى الآن خمسة ملايين نسمة . وكانت تستظل فيما مضى بحماية الملوك فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ولها الكثير من الأديرة والمدارس ذات النفوذ الواسع .

---

(١) يربو عدد هذه المعابد المشيدة تحت الأرض على ألف معبد ، ٨٠٪ منها أصلة بوذى .

ولكن كان من أثر نهضة الهندوكية ، أن جذبت إليها الكثير من معتنق البوذية ، وبعد أن فقدت الكثير من مقومات بقائها نتيجة للغزو الإسلامى ، الذى دمّر أغلب أديرتها ومدارسها ، وذبح الكثير من معتنقيها .

ولكن البوذية انتعشت فى السنين الأخيرة على إثر اعتناق أفواج كبيرة من المنبوذين الهندوك لها ، وعلى رأسهم زعيمهم الدكتور أمبدكار ، الذى اعتنق البوذية مع مائتى ألف من المنبوذين فى حفل جماعى ، وذلك هرباً من التعسف والإذلال الذى تفرضه عليهم الطبقات الهندوكية العليا .

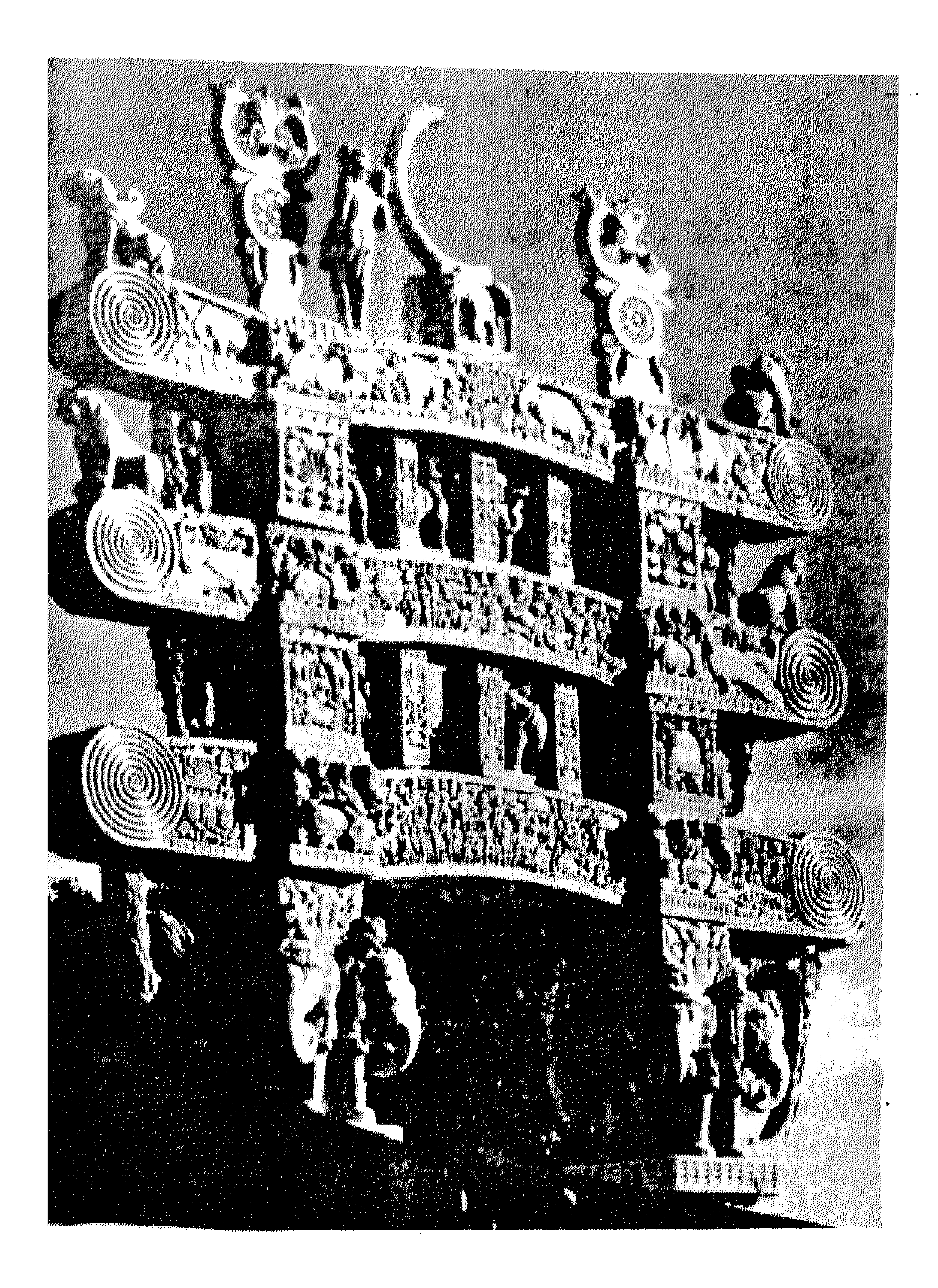
ثم انحسرت موجة الدخول فى الديانة البوذية أخيراً على إثر منح الحكومة الهندية امتيازات خاصة لطبقة المنبوذين . ومثل هذه الامتيازات يُحرم منها المنبوذ المرتد !

المعبد البوذى

وموضوع العبادة فى المعبد البوذى هو تمثال بوذا ، أو مخلفات أثرية لأكمة يقال لها ستوبا .(Stupa)

والإستوبا هى مكان ضخم معد للدفن ، نصف كروى الشكل ، حيث يحفظ به ناووس يحتوى على بعض مخلفات بوذا . وتشيد نواة الإستوبا بالطوب النىّ ، فى حين تكسى الطبقة الخارجية منه بالطوب المحروق . ويعلوها بناء حجرى أو خشبى أنيق يأخذ شكل المظلة ، ويحوطها سور يضم ممشى لأداء شعائر الطواف حولها

« الإستوبا »
إحدى بوابات أربع تزين
الإستوبا البوذية بمدينة « سانشى »



٢ – الجانية

ظهرت بوادر هذه الديانة فى إقليم يقع جنوبى مدينة بنارس . ولذلك فهى قد توسعت فى اتجاه الغرب والجنوب ، فى حين ظلت محدودة فى منطقتى البنغال والهندوستان ، وتقبلّتها الممالك الصغيرة المنتشرة فى هذه الجهات كدين رسمى للدولة .

والديانة الجانية حليفة البوذية ، كما أنها ظهرت معها فى وقت متقارب . وما يعرف عنها قليل ، بالرغم من أنها كانت واحدة من الديانات ذات الأثر الدامغ فى ماضى الهند . ولا يعنى هذا أنه تنقصها الوثائق التى توضح تاريخها وعقائدها . فهناك كتاب « اليوجاسوترا » من القرن الثانى عشر ، يلخص لنا أخلاقياتها وسلوكها . و« الكالياسوترا » وهى ترجمة لسيرة مؤسسها . ويرجع تاريخها إلى القرن السادس .

أما النصوص الكهنوتية لهذه الديانة فلم ترد إلا فى جزء بسيط من كتاب « الباجاقاتى » الهندوكى ، وهو ما يستوجب الرجوع إلى المصادر البرهمية كلما دعت الحاجة إلى الحصول على فكرة – ولو عامة – عن هذا المذهب .

والجانيون يكوّنون عدة طوائف مميزة ، تنفصل الواحدة منها عن الأخرى تماماً ، حتى فى كتبهم المقدسة (الأجاما) .

وبوجه عام فالجانية هى صورة طبق الأصل من البوذية ، حتى أنه يصعب تعليل أو تبرير استمرار بقائهما جنباً إلى جنب طيلة هذه القرون الطويلة ، بالرغم من الكراهية الدفينة الخالصة المتبادلة بينهما .

والجانيون هم أتباع « ماهافيرا » (الجينا – أى المنتصر) ، وهو حكيم بلغ الدرجة القصوى من المعرفة (أى العليم بكل شىء !) أتى إلى هذه الدنيا ليعيد سنّ القوانين

بكل نقائها وطهارتها ، بعد أن استشرى الفساد بين الناس .

ويدّعي الجانيون أن بوذا نفسه كان أحد تلاميذ مؤسسي ديانتهم .

وهناك أربعة وعشرون من هؤلاء (الجينا) – ويطلقون عليهم لفظة (تِرْتنكارا» ، تَعَاقب الواحد منهم بعد الآخر ، وكان آخرهم من سلالة ملكية .

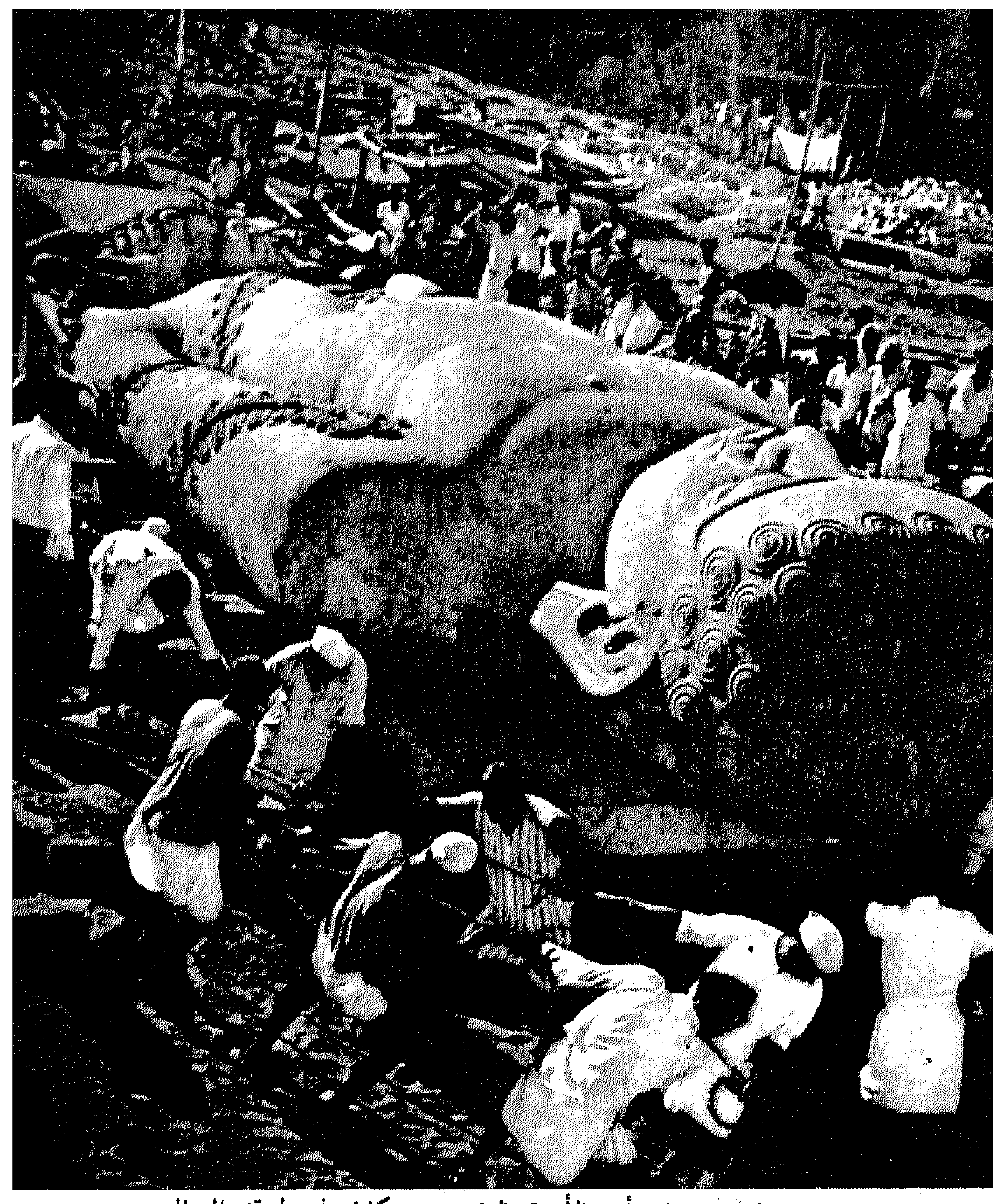
هذا وقد خلف هؤلاء «الجينا» بعضهم بعضاً على مدى الدهر ، وعلى فترات شاسعة غير محدودة . وكانت قاماتهم وأعمارهم تتناقص تدريجياً منذ الجينا الأول (ويدعى ريشابا) الذى بلغ طول قامته ثلاثة آلاف قدم ، وعاش ثمانية ملايين عام . حتى الرابع والعشرين ، وهو الأخير (فاردامانا أو ماهافيرا) الذى حاكى الجنس البشرى طولاً وعمراً ، والذى يعتبر المؤسس للمذهب الجانى .

وقد تطور هؤلاء الجينا على مدى الدهر – ويماثلهم فى ذلك الأربعة والعشرين بوذا – إلى آلهة حقيقيين ، ورموز رئيسية للعبادة .

وتبلغ تماثيل هذه الآلهة المنتشرة فى معابدها حداً هائلاً من الضخامة ، وتحاكى تماثيلَ ممنون أو رمسيس عند قدماء المصريين فى ضخامتها. كما تتميز هذه المعابد بطراز فريد أنيق خاص بها ، يختلف تماماً عن المعابد الهندوكية أو البوذية .

ويلى هؤلاء الجينا مباشرة تلاميذهم (جانادارا) ، يتلقون الولاء والطاعة من أتباعهم بصفتهم أولياء حارسين ، بخلاف عدد كبير من الآلهة التى استعارها الجانيون من الهياكل الهندوكية . وإن كانت هذه الأخيرة لا تسهم فى عباداتهم التى تماثل إلى حد كبير مع العبادة البوذية .

فهم يشتركون مع البوذية فى تقديم الذبائح ، وفى الإيمان والولاء ، وفى استعمال الأجراس الصغيرة ، وفى تلقّى الاعتراف ، وفى الاهتمام البالغ بالحج ، وفى الصوم لمدة أربعة أشهر ، وفى قراءة الكتب المقدسة ، وفى ممارسة التأملات الروحية . كما



تمثال للقديس الجانى «باهوبالى» أحد الأربعة والعشرين «ترتنكارا» فى طريقه إلى المعبد

تتمتع نساؤهم بنفس الحقوق التى يتمتع بها رجالهم .

والجانيون– كالبوذيين– يرفضون كتب الفيدا البرهمية ، وينادون بفسادها والشك فى صحتها . بل يقولون عنها إنها منتحلة ، ويستعيضون عنها بكتبهم المقدسة المسماة (أنجا) ، مع أنهم يجنّدون كهنتهم من بين طائفة البراهمة .

وهم يحافظون بدقة على قواعد الطوائف فيما بينهم ، وفيمن انشق عليهم ، تماماً كما يحافظ عليها الهندوك . وإن كان الجانيون لا يعلقون عليها أية أهمية أو مغزى دينياً كما يفعل الهندوك .

وعلى كلّ ، فإنّ عزلتهم عن الهندركية هى أقل من عزلة البوذية عنها ، بل على العكس فهم يقرّون بأنهم هندوك . كما أنهم ساهموا بقسط وافر فى الحياة الهندية الأدبية والعلمية . فعلوم الفلك والنحو والأدب الروائى تدين بالكثير إلى حماس هذه الطائفة ونشاطها .

ولكن كل ذلك لم يمنع من قيام العداوة الخطيرة بينهم وبين البراهمة ، تلك العداوة التى اتسمت بالحوادث الدموية فى أرجاء مختلفة من الهند ، وخاصة فى معقلهم بولاية (جوجارات» ، وفى الجنوب الأقصى .

والجانيون ينقسمون – كاليوذيين – إلى هيئتين : كهنوت (ياتى) ، وعلمانيين (شراقاكا) أى مجرد مستمعين ، وإن كان سلك الرهبنة لم ينتشر بينهم كما انتشر عند البوذيين .

والراهب الجانى لا يعيش على الصدقة والتسول كما يفعل زميله البوذى . كما أنهم لا يؤسسون سلكاً خاصاً بالرهبنة كما هو عند البوذيين .

وينقسم الجانيون إلى طائفتين رئيسيتين : الفئة الأولى «شقيتامبارا»– أى ذوو الثياب البيضاء . والفئة الثانية «ديجامبارا»– أى الذين يلتحفون الهواء ، أى الذين

يذهبون عراة (١). وإن كانت هذه الفئة لا تمارس العرى فى هذه الأيام إلا عند تناولهم الطعام جماعة ! ! . . .

ولم تتفوق أية طائفة هندوكية على الجانيين فى التمسك بمبدأ عقيدة عدم العنف . فهم قد ذهبوا فى تنفيذ هذه الوصية– الامتناع عن القتل– بكل دقة وبحماس وحمية لم يسمع بها من قبل .

هذا مع العلم بأن عقيدتهم تجيز لهم الانتحار فى حالتين ؛ الأولى إذا ما تعذر على المتنحر ردع نفسه عن الانغماس فى الشهوات الدنيوية ، وفى الثانية عند إدراكه وبلوغه درجة « القداسة » ، فيجوز للفرد منهم عندئذ أن يتخلص من حياته بيديه .

وحتى يومنا هذا فهم يمتنعون عن الجلوس فى محاكم الجنايات ، لتفادى أحكام الإعدام . فى حين أنهم على العكس من ذلك من أمهر الأخصائيين فى القوانين المدنية .

والجانيون يحترمون ويمتنعون عن قتل كل ما دبّت فيه الحياة ، فهم لا يمتنعون فقط عن أكل اللحوم بأنواعها ، بل إنهم لا يشربون إلا الماء المرشح ، ويضعون نقاباً يشبه الكمامة على أنوفهم وأفواههم ، وذلك خوفاً من استنشاق الميكروبات ، لا حرصاً منهم على حياتهم ، بل حرصاً على حياة الميكروب ! ويكنسون الأرض أمامهم خوفاً من أن تطأ أقدامهم حشرة . ويشترط أن تكون المكنسة ناعمة الملمس ، لئلا تؤذى الحشرة !

ومن المناظر المألوفة فى الهند ، منظر الجانى وهو يتجول فى قيظ الظهيرة باحثاً عن جحور النمل ، يطعمها بالحلوى والسكر المجروش ! والجانى المتدين لا يوقد ناراً فى

---

(١) اختفت هذه الفئة من الحياة العامة خلال القرن التاسع عشر ، عندما طاردها البوليس البريطانى .

الليالى المظلمة خشية اجتذابها للفراشات والحشرات فتحرقها .

كما أنهم لا يقصون شعور رءوسهم ، أو يزيلون الشعر من أجسامهم بالموسى أو المقص . بل يقتلعونها اقتلاعاً من جذورها ، خوفاً على حياة القمل ! كما أنهم لا يخوضون فى الماء لئلا يطئوا بأقدامهم الحشرات العالقة بها .

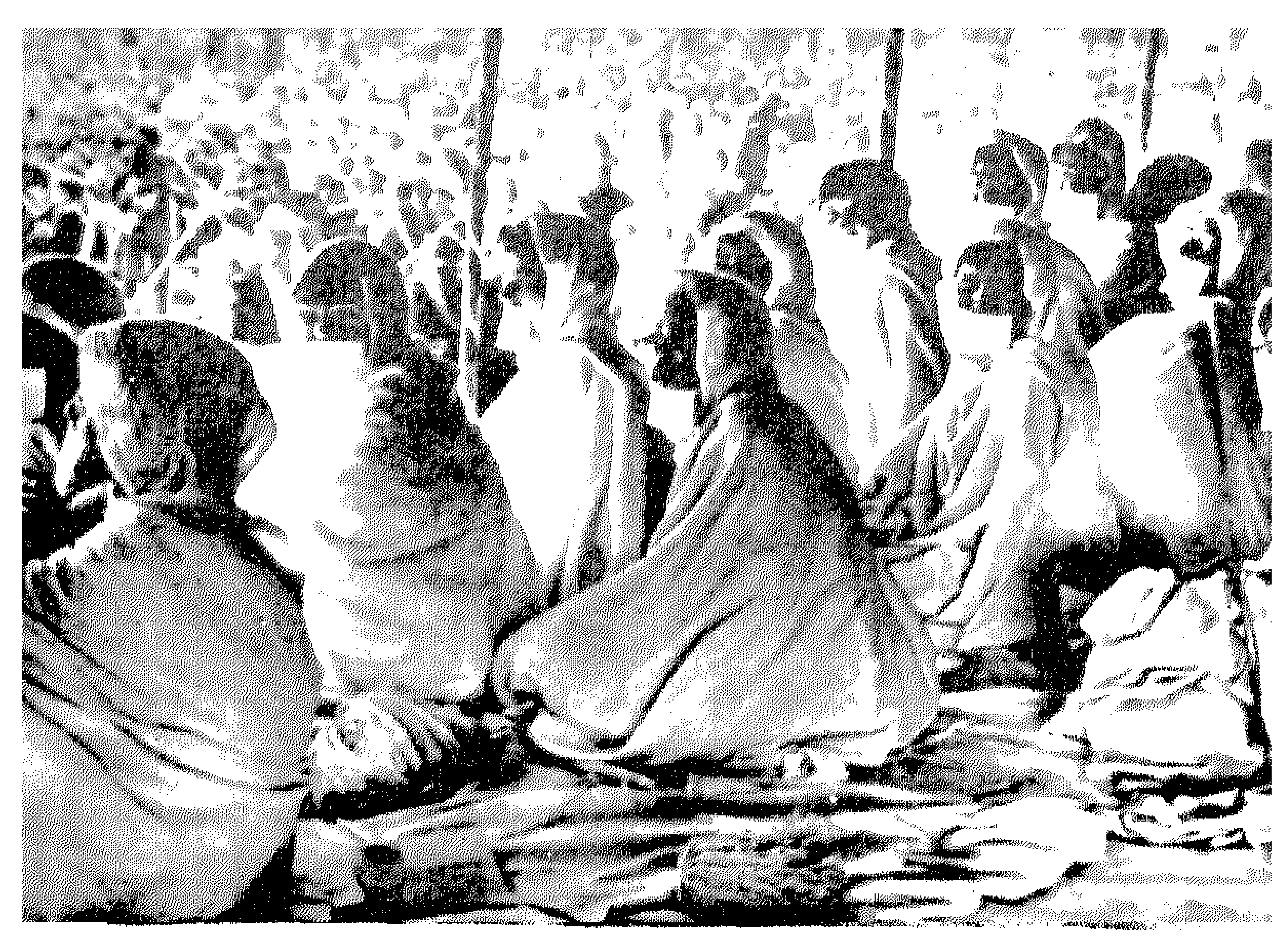
وقد أدى التمسك بهذه العقيدة والمبالغة فى المحافظة عليها إلى إقصاء هذه الطائفة من المهن الصناعية التى من شأنها أن تهدد الحياة ، بشرية كانت أو حيوانية أوحشرية ، كالصناعات التى تحتم استعمال النار أو الآلات الحادة ، وصناعات الأخشاب والأحجار ، والبناء وما شاكل ذلك . أما الزراعة فهى محرمة تماماً عليهم ، فالحرث بصفة خاصة يعرض الديدان والحشرات للقتل والإبادة .

والوصية الثانية التى يتبعونها هى الحد من التملك والحيازة . وتحدد أصول الدين عدد تلك المقتنيات بستة وعشرين بنداً . أما ما زاد عنها ، وعما هو ضرورى لحفظ الحياة والقيام بأودها ، فهو يعتبر خطراً على قداسة الشخص . وفى هذه الحالة يتحتم عليه أن يهب الفائض إلى المعبد ، أو إلى «البيطرى» لكى ينال الأجر والثواب ! وهو ما يحدث عادة فى هذه الطائفة التى تشتهر بمؤسساتها الخيرية .

أما اقتناء الثروة الضخمة فهو ليس محرماً ، إنما المحرم هو أن يكدح الفرد منهم بعد اقتناء الثروة ، والتعلق بأهداف الغنى والمال فى حد ذاته .

كما توصيهم تعاليمهم بالامتناع عن الكذب والمبالغة ، فهم يؤمنون إيماناً عميقاً بالأمانة المطلقة فى حياتهم العملية ، وعدم الغش فى معاملاتهم ، وخاصة الكسب الحرام عن طريق التهريب أو الرشوة ، وممارسة المعاملات المالية المريبة .

فالتاجر الجانى يشتهر بأمانته ، كما يشتهر بثروته . وقد جاء وقت كان أكثر من نصف تجارة الهند بين أيديهم . فهم يماثلون فى ذلك الأقليات اليهودية فى الدول



جماعة من الجانيين المكممين الأفواه ...
لاحرصاً منهم على حياتهم . بل حرصاً على حياة الميكروب .

الأخرى فى احتكارهم للأعمال البنكية ، والإقراض والتجارة.

ومن المزايا التى تتصف بها أخلاقيات المجتمع الجانى هى إطعام الجائع والعطشان ، وكساء الفقير ، والرفق والاعتناء بالحيوان ، والعناية بالرهبان . . . على شريطة أن يكونوا من ملّتهم وطائفتهم ! والعطف على غيرهم ، وحسن الظن بالناس وعدم إيذاء شعورهم ، ومحاولة كسب ودهم عن طريق الأخلاقيات العالية والأدب الجم.

ومع كل ذلك فإن تعاليمهم تحتم على الجانى ألا يربط نفسه بالآخرين .

وترجع قدرة هذه الطائفة على مقاومة النهضة البرهمية فى العصور الوسطى ،

والاضطهاد الإسلامي لها ، إلى تماسك أفرادها وتعاونهم فيما بينهم . فالجانى منهم سرعان ما يعيد الاتصال بطائفته إذا ما اقتضته الظروف الملحة إلى تغيير محل إقامته — وهو إجراء يندر حدوثه بينهم .

وبجانب خمسة العهود الأساسية التي يأخذها الرهبان الجانيون على أنفسهم وهي . عدم العنف ، والامتناع عن الغش ، وتحريم تناول ما لا يقدم إليهم بحرية وعن طواعية وإخلاص ، والعفة والطهارة ، ونبذ الحب أيا كان لشخص أو لشيء! ! — ، فإنهم يوصون بوجوب استبعاد الحب لأنه يوقظ الرغبة .

فبالرغم من هذه الخصال والصفات فإنه ينقصهم مثلا إدراك معنى « حب الجار » ، أو « حب الله » ، أو « العفو والمغفرة » ، أو « التوبة التي تمحو الذنوب » . ولعل هذا هو ما أكسب لجانى القول المأثور عنه : « إن قلب الجانى خاوٍ » ! —

وترفض الجانية بشدة وصايا وتعاليم كتب القيدا الهندوكية المقدسة . ولا يعنى الخلاص شيئاً بالنسبة إلى الجانى ، ذلك الخلاص الذى يعتمد فقط على تقشف وزهد الفرد . فتعاليمهم تتركز على افتراض أن الخلاص النهائى إنما يعنى التحرر من « عجلة الولادة » الدائمة (أى التجسيد والتناسخ) ، وأن هذا الخلاص لا يمكن إدراكه إلا بالانفصال التام عن هذا العالم المملوء بالعيوب والنواقص .

ومن الغريب الطريف أن القواعد الكلاسيكية للجانية تفرض على الكاهن منهم حياة التشرد والتنقل المستمر ، وذلك خوفاً عليه من أن يتورط فى إقامة علاقات شخصية أو عامة مع الناس . وعلى العكس تفرض نفس القواعد على العلمانى منهم البقاء فى مكان واحد لا يبدله ، حفظاً له وخوفاً عليه من ارتكاب الذنوب والمعاصى إن هو جال وساح !

فإذا اضطر واحد منهم إلى السفر والترحال ، كان عليه أن يحصل على

إذن (الجورو) ، الذى يأذن له بالسفر – وقد لا يأذن – مزوّداً إياه بتعليمات ، مقرراً له طريق السفر ، ومدته ، والحد الأقصى لمصروفاته .

فالعلمانيون يعاملون معاملة « القصّر » ، ويخضعون لقيود تنظيمية صارمة ، مثل الرحلات التفتيشية التى يفاجئهم بها الكهنة ، أو فرق « حرّاس الفضيلة » .

وتتطلب هذه التعاليم من العلمانى أن يتأمل يوميًّا لمدة محدودة (ثمانٍ وأربعون دقيقة !) ، وفى أيام معينة (أربعة أيام فى الشهر) .

كما تفرض عليه حياة القسوة والتقشف فى أيام معلومة ، فلا يبارح قريته ، ولا يذوق الطعام أكثر من مرة واحدة فى اليوم .

ويشترك الجانى مع البوذى فى تصوره لهذا العالم ، وفى فلسفته عن الحياة ، وفى أن كل واحد منهما ملحد ، فهما لا يقرّان ولا يؤمنان بوجود خالق ، ويعتقدان فى أزلية هذه الدنيا .

وأخيراً يعتبر الجانيون أن دينهم يختلف بل يمتاز عن الهندوكية . إلا أنهم لا يبرزون أو يجاهرون بهذه الفروق والخلافات بالعنف والشدة التى يظهرها المسلمون والمسيحيون والسيخ . ولذا فهم بمأمن من شر الهندوك وسيطرتهم وبطشهم .

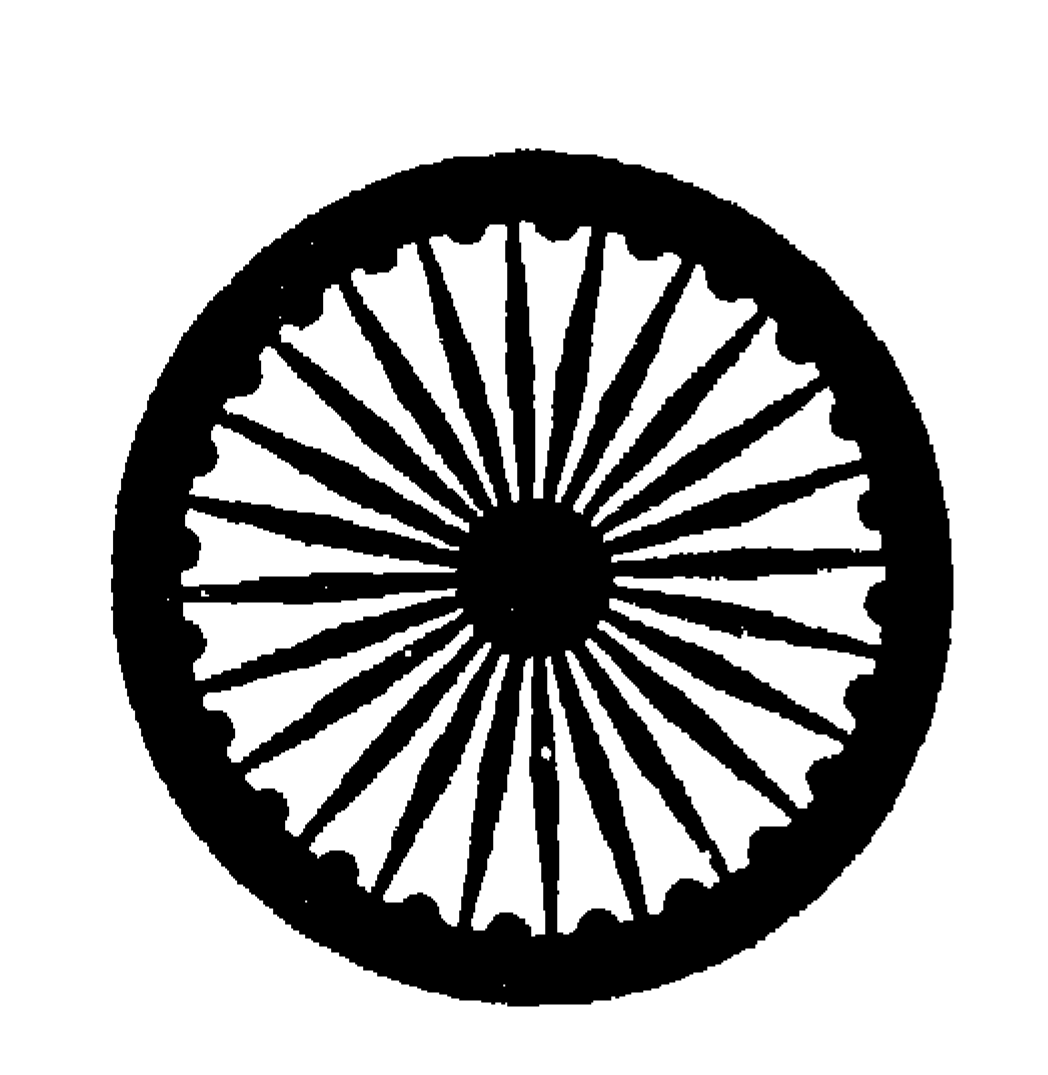
المعبد الجانى

والمعبد الجانى يضم تمثالاً لإله من أربعة وعشرين إلهاً ، وهم مجموع القديسين الذين يؤلهونهم (الترتنكارا) .

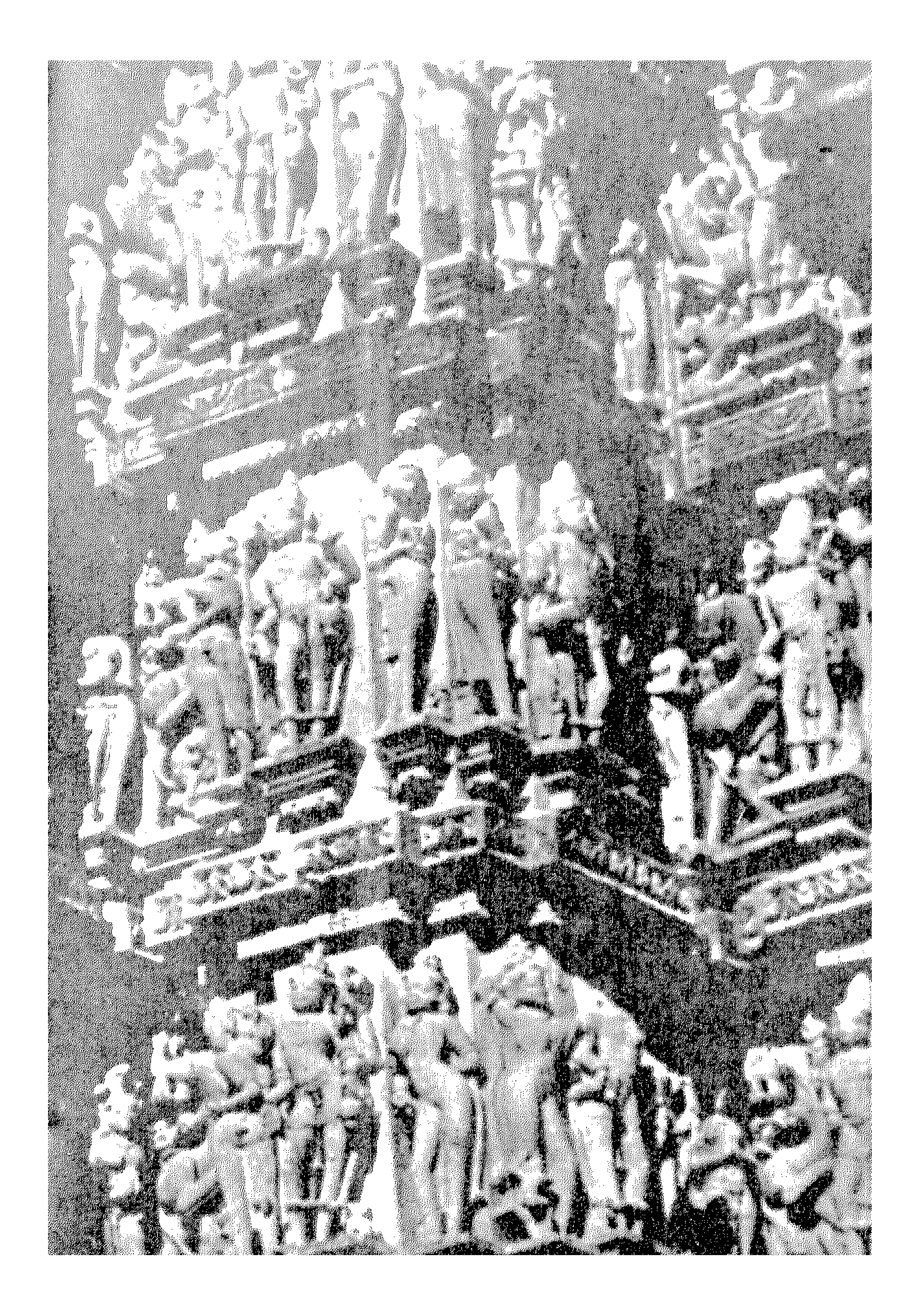
ومن الغريب أن الراهب الجانى لا يقوم بالإشراف على المعبد ، بل تُترك هذه المهمة لطبقة البراهمة التى تمرست فى هذه المهنة . أما هو فيكتفىء بمركز الأستاذ والمعلم (جورو) .

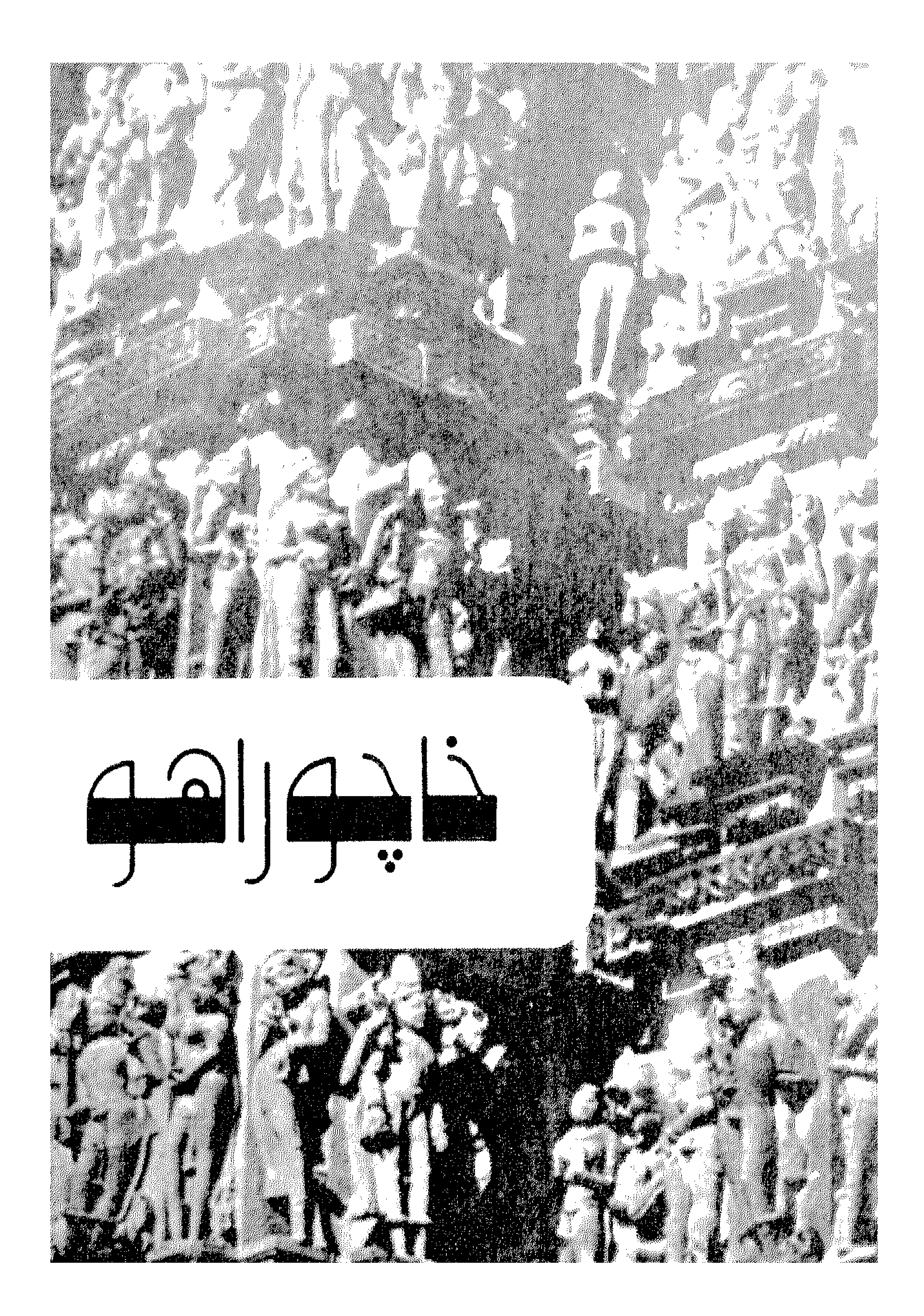
ورسامة الكاهن المستجد تجرى، تحت شجرة ، بعد أن يضع جواهره وملابسه جانباً ، دلالة على تخلصه من جميع مقتنياته . ثم يشرعون فى « اقتلاع » شعره ، وتلطيخ صلعته . ثم تنتهى المراسم بأن يهمس له الأستاذ فى أذنه بالصيغ الكهنوتية والسحرية .

وتتركز أماكنهم المقدسة التى يحجون إليها فى مناطق بيهار ، وفى ولاية جوجارات على الساحل الغربى ، وعلى جبل « آبو » فى ولاية « راجستان» ، وفى بعض أماكن أخرى متفرقة . وهى نفس الأماكن المقدسة التى تضم المخلفات الدينية للبوذية .



ملحق خاص عن




خاچوراهو

« خاجوراهو »
مدينة الآلهة

جاء ذكرها فى رحلات ابن بطوطة الذى زارها عام ١٣٣٥ ، وسماها (كاجورا) ، وقال إنها تجاور بحيرة يبلغ طولها ميلا تلتف حولها المعابد والأصنام .

وحتى يومنا هذا ما زالت هذه المعابد والأصنام قائمة ، فى ولاية (ماديا براديش) وعاصمتها (بهوبال) ، وتكوّن أكبر مجموعة من المعابد الهندوكية النفيسة فى شمال الهند ، تقوم كشاهد على عبقرية الهندسة الإندو–آرية

وهذه المعابد وإن لم تكن فى ضخامة أو جلال معابد ولاية (أوريسا) – «كونارك» و «بوبانسوار» – إلا أنها تفوقها برشاقتها وزخارف جدرانها الرائعة .

وكقاعدة . تشتمل هذه المعابد على ثلاثة أقسام رئيسية : حجرة قدس الأقداس (جاريا جريها) – أى بيت الرَّحم ، وصالة الاجتماعات (ما ندايا) . وبوابة المدخل الرئيسى (أردا – ماندابا) ، وتشكل على هيئة صليب .

ومعظم هذه المعابد مشيد من صخور الجرانيت الصلبة أو الحجر الرملى . وتأخذ الكتلة العامة للبناء فى الارتفاع تدريجياً إلى عنان السماء ، بوساطة أبراج متماثلة ، تتجمّع حول البرج الرئيس ، لتضفى على البناء شعوراً بالسمو والشموخ .

أما جدران المعابد وعواميدها – سواء أكانت من الداخل أم الخارج – فهى مزينة بتماثيل ونقوش من النحت البارز الذى ينبض بالحماسة والقوة ، ويضيف إلى الفن التشكيلى ثروة لا تقدرّ بثمن

وتتميز هذه التماثيل بصور الأشكال النسائية الرشيقة ، والإسراف فى عرض صور الجنس والإباحية المطلقة .

وإن كانت مثل هذه الإباحية فى العرض ليست مقصورة على معابد «خاجوراهو» ، فهى توجد بكثرة فى المعابد البوذية والجانية والهندوكية فى جنوب الهند ، وفى كهوف «أجانتا» و «اللّورا» التى نحتت فى زمن سابق لها . ولكن ما يميز تماثيل «خاجوراهو» عن غيرها هى تلك

الجرأة التى صوّرت بها .

ويعزى السبب فى ذلك إلى بعض الطقوس الدينية التى كانت منتشرة فى هذا الوقت بين المجتمع الراقى وبين ملوك (تشانديلا) – الذين قاموا بتشييد هذه المعابد – والتى كانت تتضمن إقامة حفلات القصف والتهتك وممارسة الجنس علانية . وكان معتنقو هذه الطقوس يعتبرون أن الامتزاج الجنسى ما هو إلا رمز الامتزاج الروحى مع الإله «سيفا» .

ويمكن تلخيص فلسفة هذه العقيدة فى أن الحقيقة الأزلية للحياة هي : أن الحياة تخلّد نفسها . وتهدف عن طريق هذا الخلود إلى إنجاز مهمتها . فالحياة ليست زائلة . ومهمتها هي التحدى ومحاربة الانحلال والموت . ويرمزون إلى هذا التحدى بالإمتزاج الروحي بين الإله «سيفا» وزوجته «ساكتى» . وأن أقرب عوض عن هذا الامتزاج الروحى . هو الامتزاج الجنسى الذى يتوّج الحياة والصحة .

أما الثروة . وطول العمر . والهناء الروحى – فى نظرهم – فيأتى بطبيعته لهؤلاء الذين كرّسوا أنفسهم لممارسة هذه الطقوس الجنسية عن عقيدة وإيمان راسخ !

ولكن هذه العقيدة الغريبة ما لبثت أن اندثرت فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد .

ولعل هذا هو السبب فى المبالغة فى التأكيد على أهمية الجنس على معابد «خاجوراهو» فنجد من بين تلك التماثيل مجموعات فاضحة من الرجال والنساء. تمثل الإباحية الصارخة فى أوضح صورها. كما ترى الحورية وهى تتغزل فى جمالها أمام مرآتها المعدنية. أو وهى تمسح شعرها المسترسل بيدها. أو وهى تطلى باطن قدميها وأظافرها. أو وهى تضع الكحل فى عينها. أوتمايل وهى تؤدى رقصة. لكى تبدو بكامل فتنتها وجمالها. وكأنها تدعو المتعبد الناسك بعينيها اللوزيتين المسدلتين فى حياء وخفر. وبثنايا جسدها المياس. وخصرها النحيل الضيّق. وصدرها البارز المستدير. إلى الإثارة الجنسية. توحيها إليه بإشارة خفيّة.. وبدعوة مستترة!

ولكن الهندوكى المتديّن لا يرى فيها فحشاً أو إسفافاً. بل يرى فيها تعبداً وصلاة وإيماناً!..

أليست هذه الأوضاع التى تملأ بصره وتأخذ عليه حواسه. إنما تمثل النشوة الطاغية لآلهته. وهم يقومون بعمليتهم الحيوية لخلق عالمه الذى يعيش فيه؟؟..

أما الفنان الأجنبى الذى يقصد هذا المكان السحيق من العالم فهو يفد إليه من أرجاء المعمورة. فيقف أمام تلك الروائع الفنية مشدوهاً. وهو يتعجب لهذا الإعجاز الذى ابتدعته يد هذا الفنان البدائى المجهول.

وأهم هذه المعابد هي للإلهين «سيفا» و «فيشنو» . ويبلغ عددهم اثنا عشر معبداً . وأكبرها هو معبد «كانداريا ماهاديفا» . الذى يعتقد أنه شيدّ عام ١٠٠٠ ق. م. ويضم أكبر وأهم مجموعة من التماثيل .

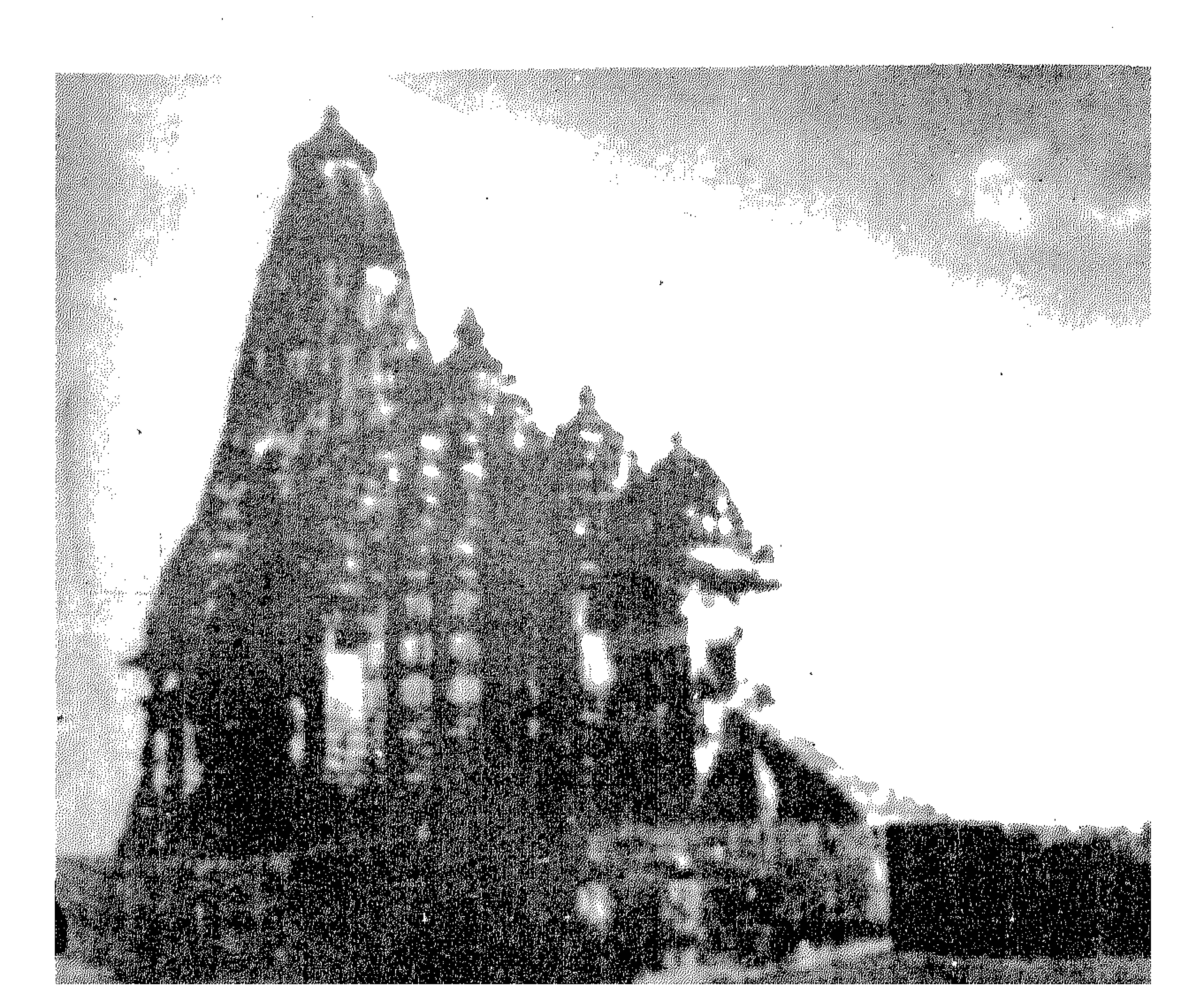
ويليه معبد «فيشفاناتا» للإله «فيشنو» وهناك معبد آخر يكرّس لعبادة آلهة الشر المخيفة «كالى» . وآخر لعبادة إلهة الشمس «سوريا» . وآخر لعبادة الخنزير البرّى «فاراها» . وهو أحد تجسيدات الإله «فيشنو» الأرضية ! .

معبد «كانداريا ماهاديفا» خاجوراهو.

ويعتبر هذا المعبد أضخم وأهم ما فى مجموعة معابد خاجوراهو. إذ يبلغ طول ضلعه ٣٣ متراً ، وعرضه ٥٤ متراً ، وارتفاعه ٣٥ متّراً . وتزين التماثيل – وهى من النحت البارز – جدران المعبد وحوائطه وأعمدته من الداخل والخارج فيبلغ عددها فى الداخل ٢٢٦ تمثالاً . وفى الخارج ٦٤٦ تمثالاً . ويتراوح ارتفاع الواحد منها من ٧٥ إلى ٩٠ سم .

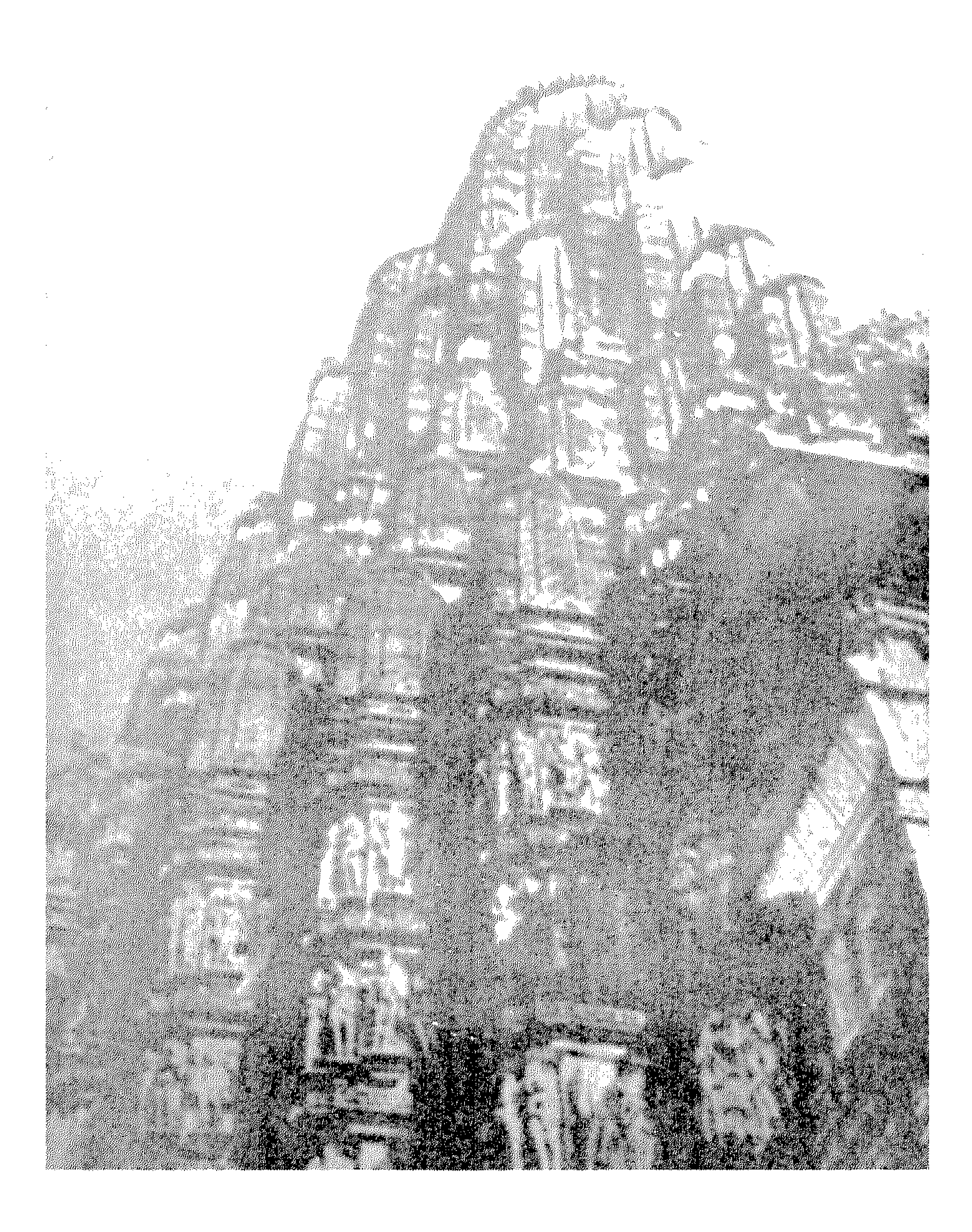
ويلاحظ تسلسل ارتفاع الأبراج – كما هو فى كل المعابد الهندية – حيث يكون أعلاها هو البرج الذى يعلو الغرفة المقدسة التى تضم تمثال الإله موضوع العبادة . وأقصرها هو الذى يعلو بوابة المعبد الخارجية .

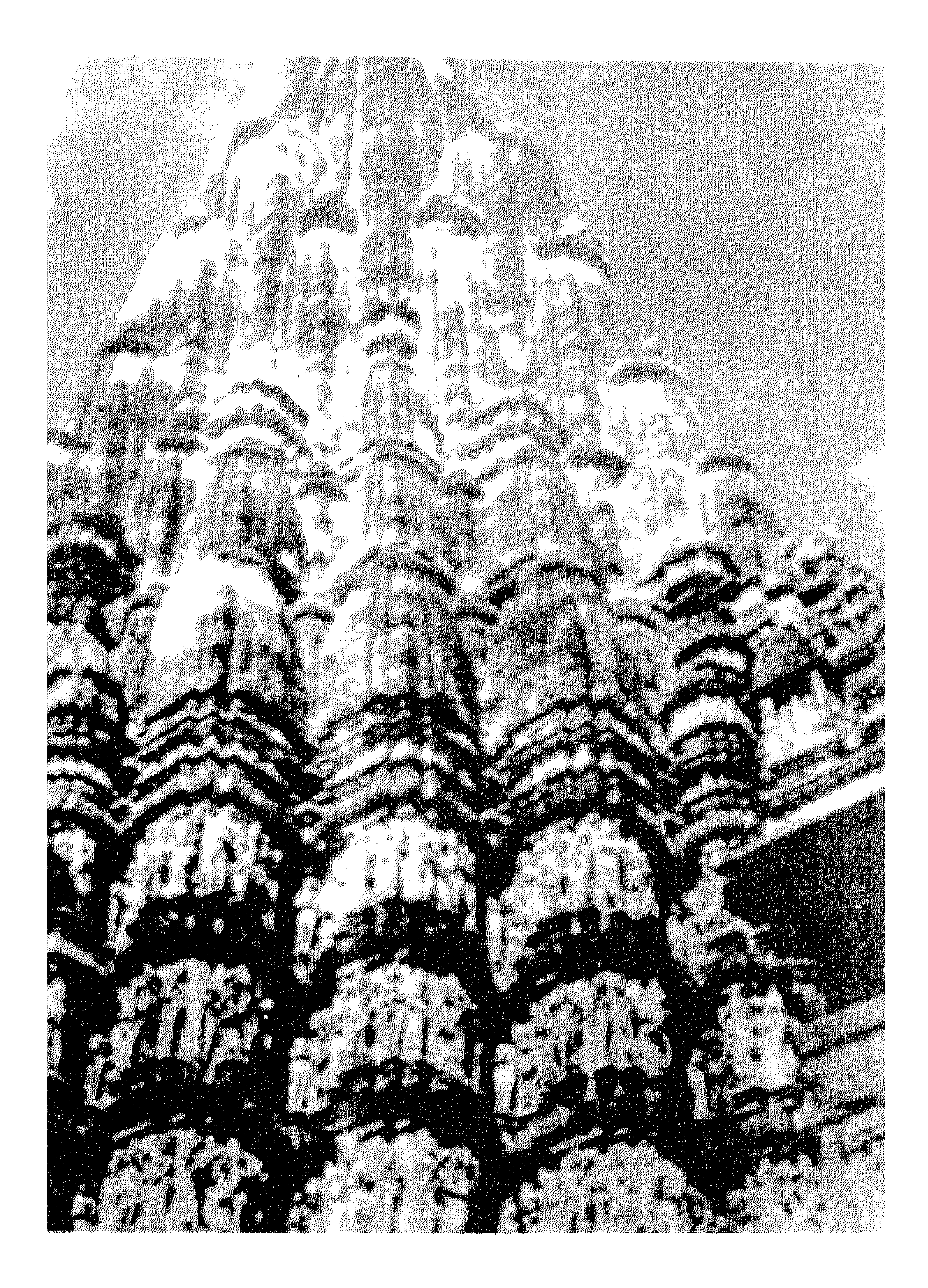
والمثالون الذين نحتوا هذه الروائع والتماثيل الفنية مجهولون ، قاموا بعملهم فى صمت وسكون . لايطمعون فى مال أو جاه . ولا يبتغون إلا مرضاة الإله . وهم يعبدون آلهتهم ، كما يعبدون عددهم وآلاتهم فى أعياد سنوية تقام خصيصاً لهذا الغرض .



معبد « فيشفاناتا »
-تاجوراهو

« وفيشفاناتا » هو إله الكون ، لقب الإله « سيفا » . ويضم هذا المعبد تمثالاً له وهو يمتطى ثوره المقدّس « ناندى » ، فى حين يحيط به « براهما » – الخالق – ممتطياً أوزة ، و « فيشنو » معتلياً نسراً ، كما يضم المعبد تمثالاً لعضو الإخصاب – اللنجام – ويحتوى المعبد بداخله وخارجه على ٦٠٢ من التماثيل يتراوح ارتفاعها من ٦٠ إلى ٧٥ سم .





شرح الصور

(**شكل ١**) حورية تتغزل فى جمالها فى المرآة المعدنية . خاجوراهو . (متحف كلكتا) .

(**شكل ٢**) حورية تؤدى رقصه . خاجوراهو .

(**شكل ٣**) حورية تضع الكحل فى عينيها . خاجوراهو .

(**شكل ٤**) امرأة تلعب بالكرة . معبد لاكشمانا . خاجوراهو .

(**شكل ٥**) فى الطريق إلى الصيد . معبد كانداريا ماهاديفا . خاجوراهو .

(**شكل ٦**) المعركة . معبد كانداريا ماهاديفا . خاجوراهو .

(**شكل ٧**) نداء الحرب . معبد كانداريا ماهاديفا . خاجوراهو .

(**شكل ٨**) زوجان متآلفان يتعانقان فى حرارة ، فى حين يحيط بهما من الجانبين امرأتان تظهران الحياء والخجل . معبد كانداريا ماهاديفا . خاجوراهو .

(شكل ٩) إندماج الجسدين فى حرارة اللقاء . معبد جاجادامبا . خاجوراهو .

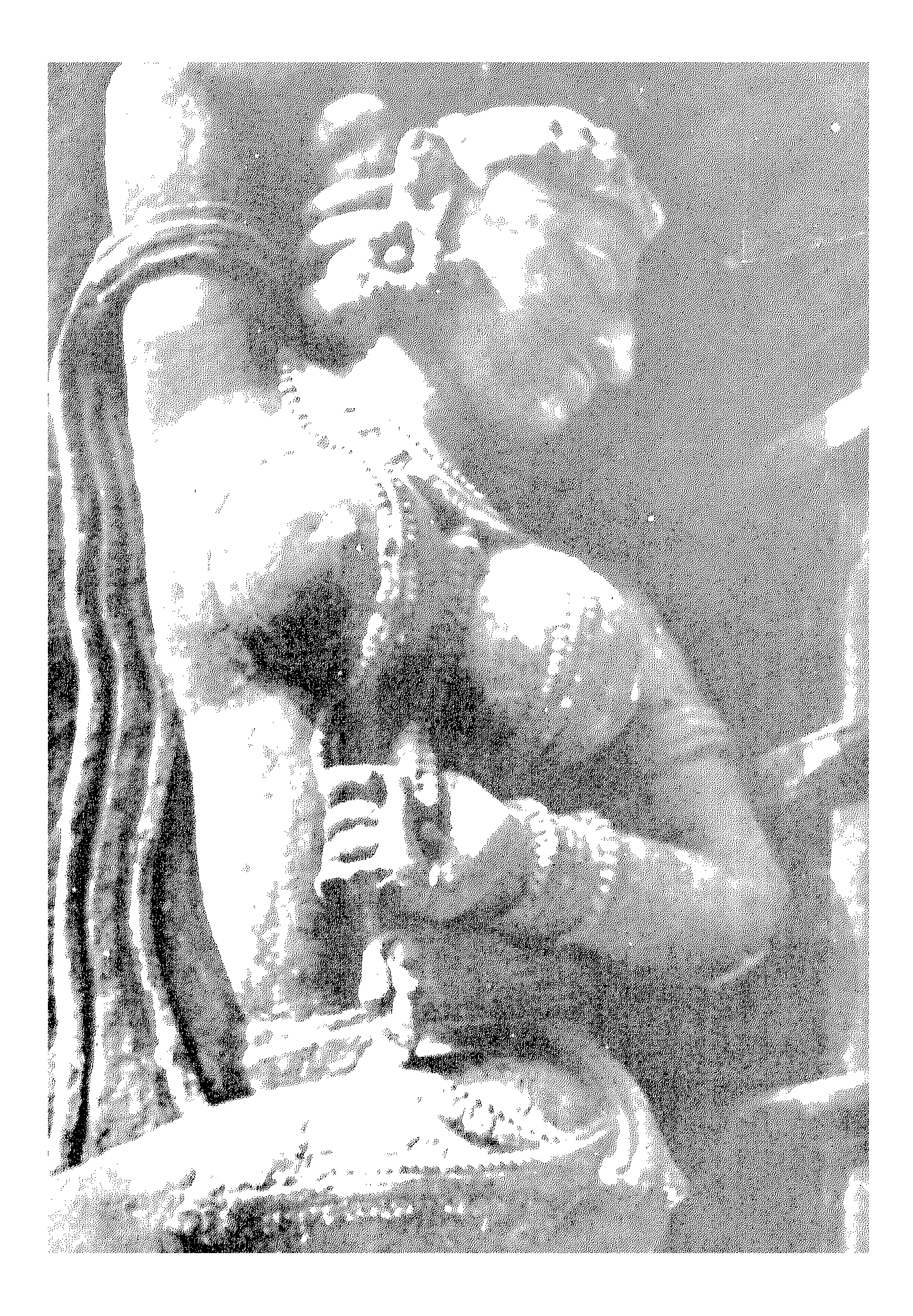
(شكل ١٠) القبلة . معبد لاكشمانا . خاجوراهو .

(شكل ١١) معبد «باراسواناتا» الجانى . خاجوراهو . و «باراسواناتا» هو الثانى والعشرون فى سلسلة الأربعة والعشرين جينا (ترتنكارا) فى الديانة الجانية .

(شكل ١٢) حورية تخرج شوكة من باطن قدمها . خاجوراهو .

(شكل ١٣) الإله «سيفا» وزوجته «بارفانى» . معبد باراسواناتا . خاجوراهو . يظهر التمثال الزوج الإلهى وهما فى لحظة توافق وتآلف وانسجام ورضا . فالإله يلاطف زوجته ويحنو عليها ويضمها إليه بذراعه القوية . وهى والمرآة فى يدها بعد أن انتهت من زينتها ، تتطلع إليه فى لهفة ، فهى تمثل هنا رمز الأعزاء الأنثوى الأبدى ..

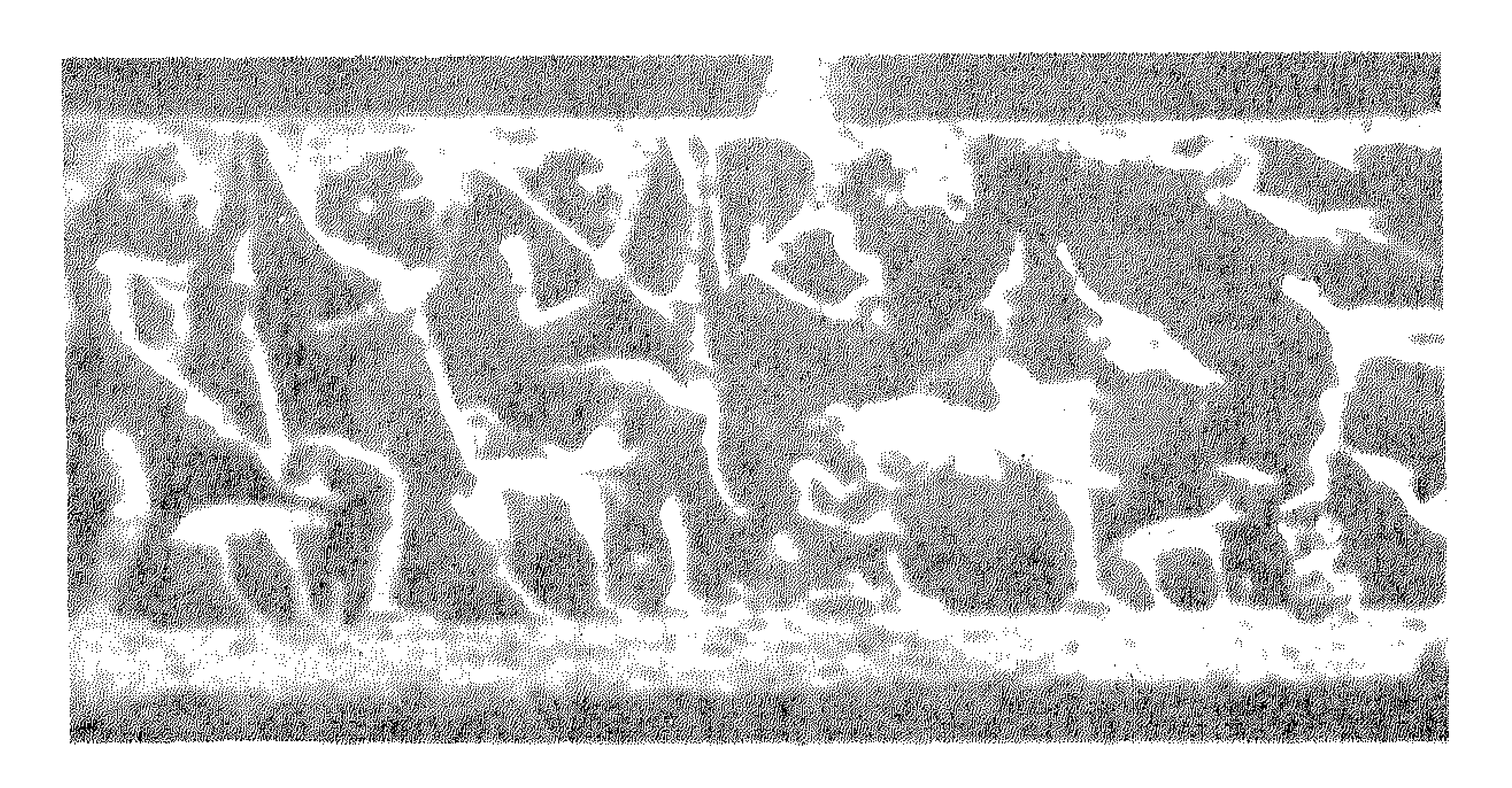






۳





١٦٧

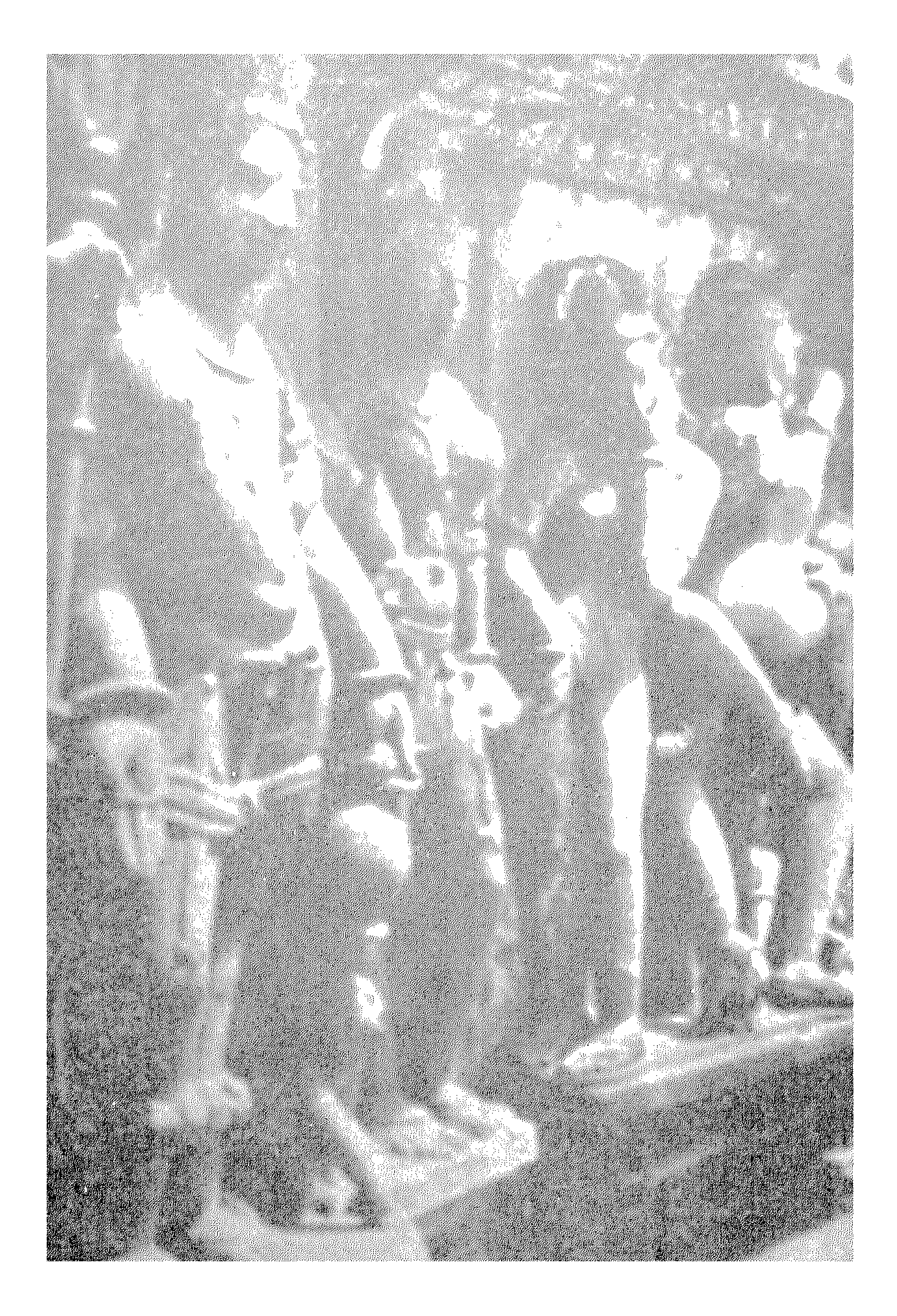


٦



٧

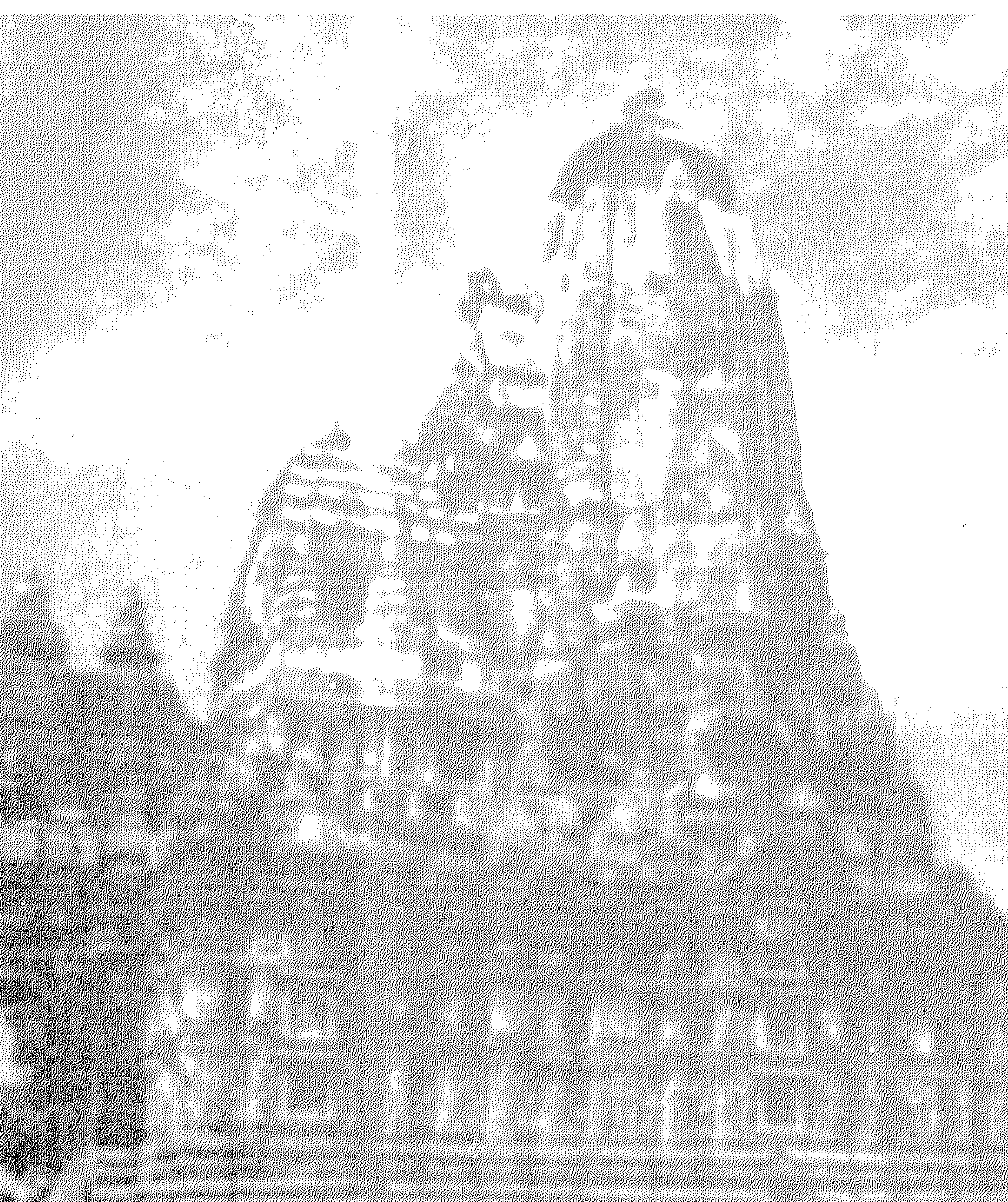




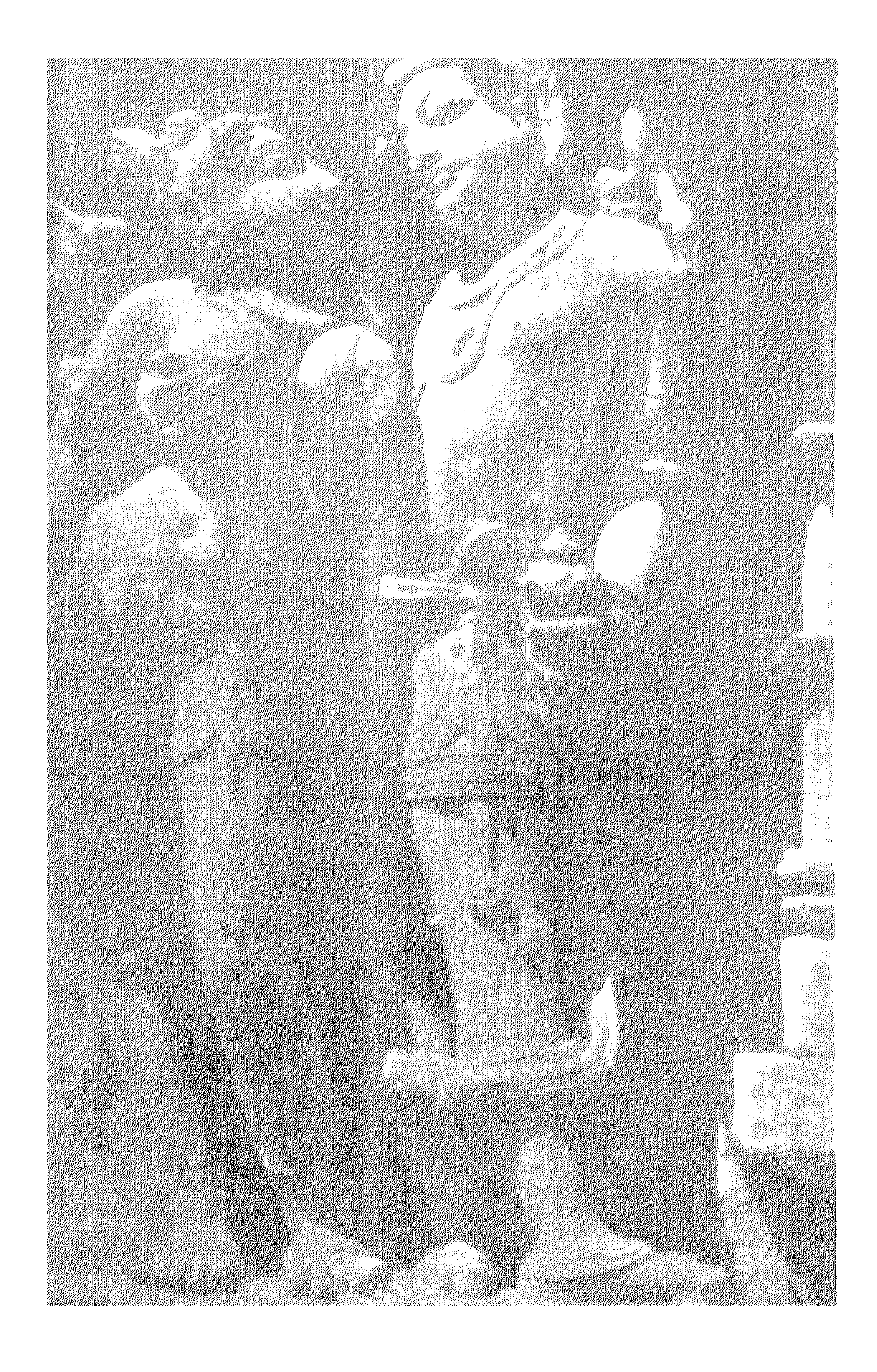


٩ ١٠





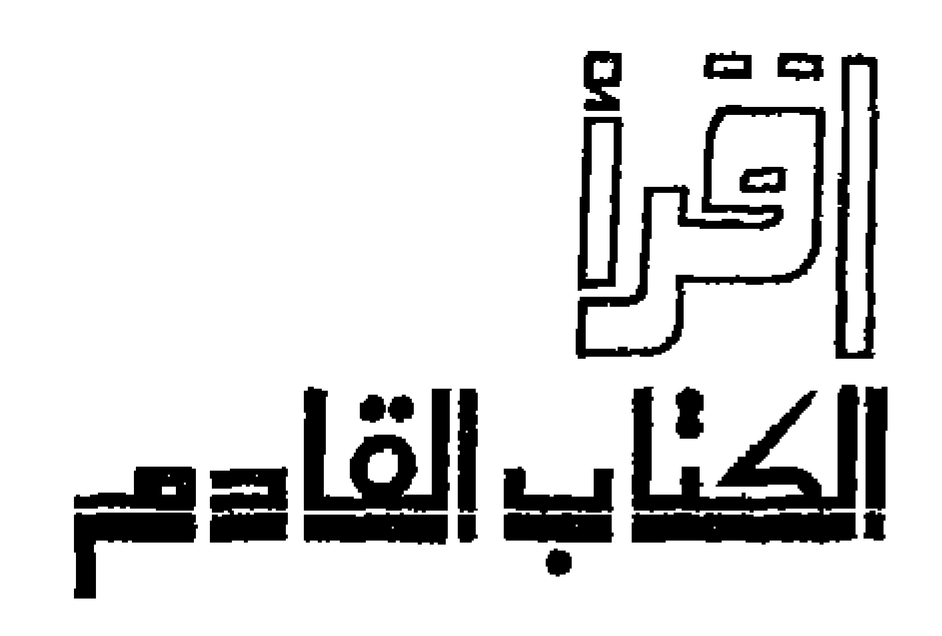




رقم الإيداع	١٩١٣/١٩٧٨
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ١٨٥ - X

١٤٣/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



المكيفات

للدكتور عبد العزيز أحمد شرف

يتعاطى الإنسان المكيفات والمخدرات منذ أقدم العصور بهدف النشوة أو المزاج أو التهدئة . . الخ . . حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من حياة الكثيرين .

وهذا الكتاب يتناول هذا الموضوع من مختلف جوانبه التى تهم القارئ بدءاً من تاريخ معرفة الإنسان للمكيفات وأنواعها المختلفة وآثارها على الأفراد وعلى المجتمع . . كما يفرد المؤلف فصلاً كاملاً عن التدخين يهم كل مدخن أن يقرأه .

الثمن ٢٠ قرشاً

ص

٢٠

